قلبان وظل

دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
ص . ب . ١٣ المقطم - القاهرة
فاكس : ٥٠٦١٠٣٠
٣٥ ش محى الدين أبو العز
ت ٣٤٩٧٧٧٩ - ٣٤٩١٧٢٧

رقم الايداع ٧٤٦٧ / ١٩٩٢
I.S.B.N 977 - 5344 - 10 - 7

الطبعة الأولى
١٩٩٢

الاشراف الفنى : حلمى التونى

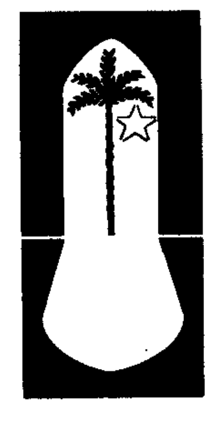
ق

قصص قصيرة

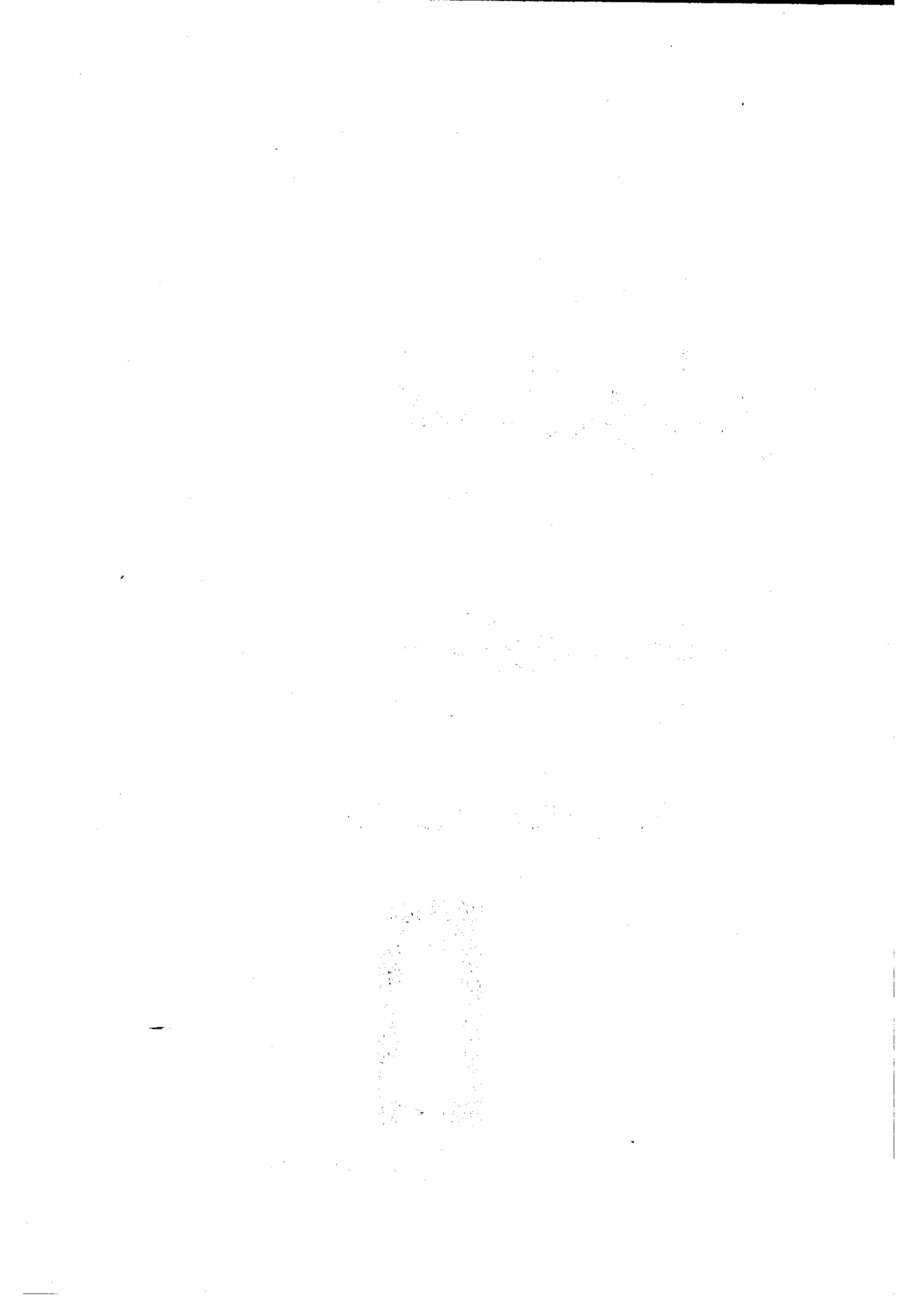
قلبان وظل

اجناثيو الديكوا

ترجمة وتقديم : عبداللطيف عبدالحليم



دار سعاد الصباح



الإهــداء

إلى صديقي المستشرق الجليل

بِـدْرُو مَـارْتِينِثْ مُـونْتَابِـثْ

تحية ود وتقدير .

ابو همّــام

مقدمة

للمجموعة القصصية

قلبان وظل

بقلم

أبو همّام

عبد اللطيف عبد الحليم

مقدمة *

الصياغة الرائقة هى التي جذبتنى إلى كاتب هذه المجموعة قبل أن تجذبني موضوعاته ، وإن كانت موضوعاته أيضا ذات قيمة فنية وإنسانية عالية ، لئلا يظن أن الأسلوب يستغرقه ، فيصير الحال طوفانا من اللفظ على صحراء من المعنى – كما يقولون – وهو بذلك بنجوة من الاستغراق فى المضامين – فنية أوفكرية – على حساب جماليات الصياغة ، كما هو الحال فى بعض الكتاب – ناثرين وشعراء – لا تنهض أساليبهم بما تحمله من أفكار ، لخصاصة لغوية ، أو لعدم اهتمام من البعض ، ظانين أن المضمون حقيق بأن يسد خصاصة اللغة ، وعندنا – الآن – كثير من الكتاب الو اهمين هذا الوهم .

وفى الإسبانية كاتب مسرحى وشاعر على ندرة – هو الفونسو ساسترى Aljanso Sastere كلامه غسيل كما يقول النقاد العرب القدامى ، ليس فيه جودة السبك ولا براعة الأداء ، ولذا لايظل لمثل هذا الكلام الأثر المرجو فى شعور المتلقى ، لأن الفن أداء قبل كل شىء ، وخير ه وزان بين الفكرة والثوب التعبيرى الملائم .

وصاحبنا إجناثيو الديكوا Ignacio Ajdecoal من خير من قرانا لهم فى الإسبانية ، وقد عرفته قصصيا قبل معرفتى به شاعرا ، أخرج ديوانين ، ولم اكن فى حاجة إلى ديوانيه لأقف على هذه الشاعرية ، لأنها سارية فى تضاعيف نثره ، فلا ينقصه سوى الوزن ، ولعل جرثومة الشاعرية هذه وراء نهوض كثير من الناثرين فى اللغة العربية والأسبانية وفى غيرهما من اللغات .

فانطونيو جالا ، وميجيل دى أونامونو ، وخوان رامون خمينيث وغيرهم شعراء يتخفون فى إهاب الناثرين ، بل هم ولجوا ميدان الكلمة المنثورة بأسلاب الشاعر وغنائمه ، ولذا أجد فى نفسى هذا الميل الفطرى إلى أمثال هؤلاء الكتاب ، نافرا من الكلام الغسيل – وما أكثره الآن فى لغتنا العربية ، بدعوى القرب من

---

* أشكر صديقي خوسيه ماريا كالبو لكريم معونته لي

لغة الحياة اليومية أو تصوير الواقع إلى غير ذلك من الدعاوى التى لا تجوز الا علينا نحن وكأن الواقعية تحرم اللغة الجميلة ، وهذا من الأراجيف الكثيرة التى شاعت لدى بعض النقاد والمبدعين ، وكأن الأسلوب الردىء ضربة لازب على كل من يخط أدبا واقعيا .

الأدب فن يستنفد من مبدعه كل الطاقات الجمالية ، وهو لغة قبل كل شىء، وفى ذرع الفنان الحقيقى أن يجعل الواقع شعرا «تشعير الواقع» ، وربما تنهض العبارة بفكرة متوسطة أو عادية فتجعل الكلام فنا وربما - أيضا - تقع العبارة الركيكة بالفكرة العالية ، فلا تشفع لها لدى المتلقى ، ولعل هذا ماعبر عنه زولا حين قال : « يأثم المرء كل الإثم حين يكتب فى أسلوب سيىء ، وليس سوى ذلك من جريمة فى الأدب تقع عليها حواسى ، ولا أدرى أين يضع المرء الخلق حين يضعه موضعا آخر ، الجملة المحكمة الصياغة فى ذاتها عمل طيب » (١) .

ولذا تكون عبارة أحد الباحثين مجحفة بالفن حين تقول : « أصبحت اللغة - فى الواقعية - مكونة من عبارات الحياة اليومية الصريحة المعبرة حتى ولو كانت إقليمية وغير خاضعة لقواعد اللغة ، لم تعد هناك حاجة إلى الشعر ... أو الخطب الانفعالية ، أو الصورة البيانية المسرفة فى شاعريتها» (٢)

وهى مجحفة لأنها تجعل الفن لضيق الإسفاف ، ولا معنى أيضا للخروج على قواعد اللغة إلافى سبيل غاية أرقى من هذه القواعد ، وهى لا تتأتى فى لغة الشعر التى هى لغة داخل اللغة ، ولانظن الواقعية تنهض بهذا أوتحتمله ، ثم لماذا الجهاد الكبير فى تحطيم اللغة ، لتصوير الواقع ؟ إن الواقع مصور فى الشعر والنثر إن على السواء ، والواقع المطلوب هو النفسى لا اللغوى ، أو قبل اللغوى - بتعبير أدق -

---

١ - النقد الأدبى الحديث - د. محمد غنيمى هلال - ص ١٦٥ مكتبة نهضة مصر

٢ - معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية - د ابراهيم حمادة - ص ٢٨٧ دار المعارف .

ولعل مثل هذا مادفع المازنى إلى مهاجمة هذه الفكرة حين قال : « والحقيقة التى لامساغ للريب فيها عندى هى أن هذا المذهب - يقصد الواقعية - من الأكاذيب ، فإنهم يقولون إن الغاية منه هى تصوير الشيء على حقيقته ، وتلك لعمرى غاية كل شاعر وكاتب ومصور كائنا من كان هذا الشاعر أو الكاتب أوالمصور وما يستطيع أحد أن يعدل عن هذه الغاية ، لأن العدول عنها يخالف كل قوانين العقل الإنسانى ، فإن الأصل فى الفنون قاطبة النظر كما أسلفنا ، فإذا ابتكر الإنسان شيئا ، فإنما يؤلف من أشتات الصور العالقة بذاكرته، وهذه الصور إنما حصلت بالنظر » (٣)

والحقيقة التى لامساغ فيها للريب عندى - إذا استعرنا لغة المازنى - أن المازنى مبالغ جدا فالمذهب ليس من الأكاذيب إلا إذا ادعى خلوه من الخيال ، والخيال بلا ريب عامل فى كل ما يصور. الكتاب واقعيين وغير واقعيين ، والإسراف فى كل فكرة نقيصة ، فالمذهب - معتدلا - من المذاهب المحترمة فى الفن عموما .

واجناثيو الديكوا ذاته شاهد صدق على ما نذهب إليه

فهو كاتب من ذوى الأساليب المعدودين فى اللغة الإسبانية ، وهذا الذى نقول عنه هذا رجل من منطقة الباسك ، ولهالغة خاصة ،يتعلم أهل هذه المنطقة الإسبانية كما يتعلمها الغرباء تقريبا ، ثم تصبح لدى كتابهم اللغة الأم أو بمثابتها ، وإبداعهم فى غير الباسكية من الغرائب أيضا ، وهو فى هذا قريب من قريب من مواطنه ميجيل دى أونامونو ، لكن الإسبان انفسهم يدركون جيدا حين يقرأون رجلا مثل أونامونو والديكوا وغيرهما أنهم ليسوا قشتاليين ، ومع هذه الغربة يبدع مثل هؤلاء فى القشتالية ويكونون من كبار كتابها.

وقدوقف النقاد الإسبان مواقف متعددة إزاء أدب الديكوا وتصنيفه ، فأدرجه

٣ - حصاد الهشيم - إبراهيم المازني - ص ٢١٦، ٢١٧ - الدار القومية انظر - المازني شاعرا - لكاتب هذه السطور ومناقشة هذه الفكرة ص ١٣٧ وما بعدها . دار الثقافة العربية ١٩٨٥ .

بعضـهم فى الواقـعية النـقدة (٤) ، لاهـتمـامـه بالبـسطاء والأسلوب ، وحـار كـاتب أخر بين الواقـعيـة الفنية والواقـعيـة الاشتراكـية ، لأن الديكوا جـمـع فى نظره بين الاثنتين إضـافةإلى رقـته الـشديدة فى اسـتـعـمـال اللغـة فى حين كانت الواقـعيـة الاشتـراكية تحتـقر الأسلوب ، وكان الديكوا يحل هـذا التناقض بين الموضـوعات والأساليب (٥).

ويدرجـه كـاتب أخر فى الـواقـعيـة الاشتـراكـيـة ضـربـة لازب فيـقـول : لم يكن لإجنـاثيـو أسـاتذة مـبـاشرون ، كـان الينبع الـحـقيـقى لأدبه هـو الحـياة نفـسهـا ، ولذا نفـهم كيف كان أسـتـاذا كبـيرا من أسـاتذة الواقـعية الاشـتراكـيـة – والأدب كله اشتراكي –وكان كبار الناثرين فى اللغة الإسبانية ، (٦)

ومعني هـذا الكلام ان كل من يكتب أدبا مستمدا من الحياة ، وهـل نستمد من غيرها كاتب اشتراكي ، وهـو تعميم خاطئ بلا ريب .

بيـد أن ثمـة من يعـتـدل في رأيه ، فـيدرج أعـمـاله فى الواقـعـيـة الفـنيـة ، ويرى إلديكوا يمثل الخطوة التـالية لباروخا ، ويرى أن رسـالة الواقـعية بوصـفهـا اتجاهـا جـماليـا هـى أخذ أدب من الـحـياة ، وليس أخـذ حياة مرة أخـرى من الحـيـاة ـ وهـذا هـو الـحـال حـال رواية العـادات والشـواهـد – وتمثل أعـمـال إجناثيـو فى رأى هـذا الكاتب انعكاسـا للواقع ، تقبس من الملاحظة الدقـيقـة من خلايا الـحيـاة المضطربة وهـى أعمال فنية وتريد أن تكون كذلك .

---

(٤) Uease : Jose .A . Abasolo : El Pais - 27 - 1- 80

(٥) Uease : Martin Nogales : Cambio 16 - 26 -11 -89

(٦) Uease : Garcia Pauon : El Pais - 13 - 3 -80

Pablo Gil Casado, Sobejano :

ثم يشرع هذا الناقد فى تحليل مايراه فى أعمال الديكوا فيرى أنها ثلاث خصائص :

١- اللغة التى تقتصر أعماق الإمكانات الفنية التعبيرية ، لاتقف عند مراعاة السلامة فحسب .

بل تملك تلك الموسيقية الهارمونية التى يمكن أن يخدشها مجرد تغيير طفيف فى المقطع .

٢- المعالجة المثقفة للجنس الأدبى بدءا من طرح دقيق للمشكلة ، كيف نحكى شيئا يحوز التعبير الأعلى ، والجمال السامى ، وهذا لا يعنى اللغة بل طريقة تقديم الوقائع ، اختيار الزمن الحكائى ، انتخاب المادة (أى شىء يقال فى الحوار ، أى جزء تشغله الحكاية ، الاوصاف - الخ)

٣- البحث عن القيم الشعرية حتى فى الأشياء العادية التى لا تكاد تعنى شيئا ، وكان الديكوا خبيرا تماما فى جلب الشاعرية إلى ما هو مغسول منها ، وتحمل الأشياء الهينة فى أعماله كل معنى .(٧)

ونعتقد أن الرأى ينصف فن الديكوا ، ويضعه موضعه الصحيح ، وإن كان الذين يدرجونه فى الواقعية الاشتراكية دفعهم إلى ذلك إهتمامه بالطبقة الكادحة اهتماما شديدا إلى درجة أنه قصر بعض أعماله على مثل هذه الفئة من الناس ، مثل قصصه عن البحر والميناء ، والحرس المدنى ، والغجر ، ومصارعى الثيران ، وعمال الرصف ، وغير ذلك من الفئات

وانظر أيضا : فى : اتجاهات الرواية الإسبانية ١٩٥٠- ١٩٧٠.

Uease : Manuel Garoa Uino :

Novela Espanola de Posguerra - Pag: 53 - 56 Madrid 1971 (٧)

المماثلة .

وإلى القارئ ذكر عناوين بعض أعماله :

- Gran Sol 1957

وتتحدث عن الصيادين

-El Falgor yla Sangre

وتتحدث عن الحرس المدنى .

- Con el Uiento Solara 1956

وتتحدث عن عالم الغجر .

- Parte de una historia 1957

وتتحدث عن عالم البحر

وهى كلها أعمال روائية . إلى جانب قصصه القصيرة التى يرى القارئ طرفا منها فى هذه الترجمة ، وتهتم بشدة بهذه الطبقات المشار إليها آنفا، وهذا الاهتمام وراء جذب بعضهم له إلى الواقعية الاشتراكية ، وما نحسب الرجل منها. فربما كان النقد الذى وجهه إلى الحياة الاجتماعية ونظمها يميل به إلى الواقعية النقدية ، وتبعد به لغته ، وحفله بالصياغة والبناء الفنى عن الواقعية الاشتراكية (٨) ، ويمكن أن نمزج هذه الأمشاج لنصفه بالواقعية الفنية النقدية .

(٨) Uease: El Cuento Espanol : 1940 - 1980 - Pay 26

ولعل القارئ يشم ما شممته فى قصته ، طائر العقعق يعبر الطريق ، من الحرد الشديد إزاء المترفين أصحاب السيارات ، وحقد طبقة العمال عليهم ، والحق أن هذا لفت نظرى كثيرا ، وكنت أود أن يبرأ منه المؤلف ، رغم أنه قد نسب هذه النزعة الحاقدة إلى فتى صغير فى تلك القصة ، مركزا على المعاني الإنسانية المسكوبة فى كل قصصه والتى لاحظها بعض النقاد الإسبان ، ويلاحظها القارئ لهذه المجموعة كذلك ، يقول أحدهم : لم يكن إجناثيو قط غير مكترث ، فالقدرة على فهم الإنسان والتعاطف معه فى مجده وضآلته شئ يميز كل أعمال الديكوا ، وهى التى تخلده ، (٩)

أعمال الديكوا تتألف من كائنات صغيرة ، ومن أناس طيبين ، شديدة الحيوية ، شاعرية عذبة ، وتعكس العالم الإسبانى لما بعد الحرب الأهلية (١٩٣٦-١٩٣٩) posguerra` ، وقد عاش هذا العالم ولاحظه ونقله فى أمانة شديدة ، دون أن يعنى النقل الذى نعهده لدى كتاب العادات فى سطحيتهم (١٠)

وواقعيه هذه التى نعتناها بالفنية النقدية جعلته يخلص لفنه ونقده لمجتمعه ، خاصة فى عصر التحول فى المجتمع الإسبانى ، وتطرح أعماله مشكلة إنسان اليوم ، وتعكس مدى تحول المجتمع إلى الحياة الصناعية ، وقصصه شاهدة على حياة القرية والأقاليم ، وتحول هذه القرية والأقاليم إلى المدينة الكبيرة وما يعنيه هذا بالنسبة لإنسان اليوم Ser hombre de hoy ، وهو يعالج هذا التحول أحيانا بشفقة وحنان وأحيانا بسخرية وغيظ

---

(٩) Uease : Alicia Bleiderg : Ignacio Aldecoa: Cuentos Completos : pay 10 : Aliannza Edi toria

(١٠) Uease : Manuel Garcia Uino .Nouela Espanola de posguerra

، وأحيانا بحزن وسوداوية ، ودائما هو شديد الاكتراث، شديد المبالاة ، (١١)

ويرى القارئ أنماطا من هذه المعالجة فى قصصه المترجمة هنا مثل فى الشاطئ الآخر ، وأود أن أنام فى سلام ، وبعد المحطة الاخيرة ، وفى الصباح الباكر ، وفتاة الميدان ، إلى أخر هذه الأنماط التى يراها القارئ ببساطة شديدة

ويرى القارئ أيضا هذه الفنية التى لا يكاد يفلت من نياطها المؤلف لحظة واحدة ، ويمكن أن نترجم هذه الفنية إلى لغة معاصرة جدا يطلقون عليها «شاعرية القص» وكما سماها مؤلف كتاب « القصة القصيرة الإسبانية ١٩٤٠-١٩٨٠ » «بشاعرية الواقعية» (١٢) .

وتعبيره أدق فى تصورنا ، ولاتأتى تلك الشاعرية من تعدد الأوصاف والصور البيانية التى تواجه القارئ فى سطور قصصه ، بل إلى جانب ذلك يصادف المتلقى هذه الغنائية التى لاتجوز على حبكته الفنية بل ربما كانت معوانا فى كثير من الحالات لتعدد البؤر والرؤى ، والقصةوالشعر قريب من قريب كما يقول ابو العلاء لأن القصة هى الجنس الأدبى الدقيق الذى يمكنه أن يعبر عن موقف عاطفى خاص ، وهى بهذه المثابة جنس أدبى بين الرواية والشعر ، وهى لا تلتقى - شكلا - بالشعر ، نظرا للغة المنظومة ، وإن كانت تلتقى - شكلا -بالرواية إلى حدما .

وتلك القيم البيانية نسيج موشوج بأصرة القصة ليس إتخاما لبنيتها ،

---

(١١) المرجع المذكور فى هامش ٩ .

(١٢) Uease : El Cuento Espanol - pag 236

بل يعمل عمله الفعلى فى بنائها ، ولا يكون إتخاما إلا لدى صغار الكتاب ، ويلمح القارئ تركيزه وتقطيره لأسلوبه إلى درجة التكثيف الشديد ، وحسب القارئ أن يطالع تلك اللغة المركزة فى بدايات قصصه ليلمح تلك البساطة المعقدة التى هى سمة الفن الجيد ، فى تلك الجمل الخالية من أدوات الربط التقليدية ، ولعل هذه السطور من قصته « فى الشاطئ الآخر» تؤيد مانؤم : « من الداخل ، وخلال فتحة الباب ألقوا مياه الدلو القذرة فى الشارع ، الكلب الغافى قريبا من عتبة الباب فر برجليه الخلفيتين خوفا ، كأن ذئابا تطارده ، ذنبه المجدوع ضائع بين ساقيه ، توقف عن الجرى بعد عشرين مترا تقريبا ، فى شمس ساطعة انتفض ، أدار رأسه متحفزا للعداء ، لم يسمع شيئا ، نص أذنيه ، توجس حذرا ، عيناه فى احمرار عارض ترقبان فى توجس ، نبح فزعا ، جعله نباحه يقشعر ، عوى ، صمت ، كل شئ هادئ ، متوحد ، طأطأ رأسه ، تشمم الأرض ، أزمع أمرا ، بطيئا بطيئا اقترب، توقف بعد جولتين ، إستوثق ، تقدم مسرعا ، الأرض موحلة ، رطبة دفعته إلى البحث عن مكان آخر حيث يقعى، دار دورات متوقفة وبطيئة ، حتى تمدد ، بعد لحظات قلائل نام مستغرقا » .

إن هذه التفاصيل ليست حشوا ، بل هى رسم للمكان الخارجى المساوق للمكان النفسى لشخوص القصة ، وكأنها الموسيقى تتقدم الغناء أو تتخلله ، وذلك الالتفات إلى فئات الحياة اليومية العادية يمنح القصة إلى جانب واقعيتها شاعرية تسكب الحياة على ما هو غير شاعرى أو يظن أنه هكذا.

وهذه الأوصاف لاتعدم إلا الوزن لتئول شعرا ، وتلك التفاصيل تذكرنا بأوصاف الشاعرالجاهلى أو ناقته مع هذا الامتزاج الحميم بروح الكاتب وتعاطفه الذى يثب من ثنايا الكلمات.

وقصص الديكوا تتوزعها أقانيم متعددة ، فهى تدور حول الحياة القروية ، والنزوح إلى المدينة ، وعزلة الشيخوخة ، وطبقات العمال ، والمهرجين ، والباعة الجائلين ، إلا أن الإنسان فى إسبانيا مابعد الحرب يوحد هذه الأقاليم ، وكنت أشعر بشئ كثير من الالفة مع موضوعاته وشخوصه ، وكأنى به يصف المجتمع المصرى حتى هذه اللحظة ،وكأن إسبانيا وعاصمتها هى مصر وعاصمتها إلى حد بعيد ،وربما كان هذا من الدوافع التى وقفت وراء ترجمتى لهذه القصص .

وقد حاولت مرارا أن أقارن بينه وبين بعض كتابنا القصصيين ، وتوقفت مليا أمام قصته التى عنونت بها هذه المجموعة « قلبان وظل » وأمام « بيت من لحم» لكاتبنا الراحل مؤخرا يوسف إدريس ، ورأيت مشابه بين القصتين ، ولم أر ما يمنع من إطلاق «بيت من لحم » على « قلبان وظل » فالمرأة وبناتها ، والأخت وأختها عند المصرى والأسبانى أبطال هاتين القصتين ،والفقيه وخايمى هما بطلاها أيضا ، وإن كان الفقيه أقرب إلى أن يكون شيئا ملموسا من صاحبنا خايمى الذى لا يتجاوز أن يكون« ظلا» وتفترق القصتان من تلك الجهة افتراقا لا ينكره من له أدنى إلمام بطريقة صاحبنا المصرى وصاحبنا الإسبانى ، فالدم واللحم يصرخان جدا فى القصة المصرية وكأن إحساس القارئ العربى غارق فى صميم البلادة لا يوقظه إلا الإلحاح الغليظ ، والدق الخشن ليدرك طبيعة العلاقة

الجسدية بين الفقيه والنساء(١٣)، بينما يكتفى الإسبانى بذلك الرمز الموحى فى نهاية القصة ليقول كل شئ وهذا فى صالح القصة الاسبانية فى نظرى ، وفى هذا درس جيد لبعض الكتاب العرب الذين يحسبون الحديث الخشن فى الجنس ضربة لازب فى الفن القصصى بصفة خاصة ، ونكاد نلمحها عند إدريس فى كثيرمما يكتب ، وكأن الإحساس العربى لا تثيره إلا تلك التوابل الزاعقة ، وهى فى نظرنا تشيل من كفته ، ولم أجد هذه الظاهرة بذلك الوضوح لدى الكتاب الإسبان إذ حسبهم الإيماء لا التصريح ، والإيماء – عادة – من أقوى الأساليب الفنية فى نظرنا .

بدأ إجناثيو الديكوا شاعرا ، وكان أول كتاب نشره هو ديوان شعر ثم توالت قصصه ورواياته التى لم تخل قط من الغنائية الشعرية ، وبوصوله هو ورفاقه من أمثال أنا ماريا ماثوتى ، وكارمن مارتين جايتى ، ورفاييل سانشث فيرلوسيو إلى عالم القصة فى إسبانيا فى أوائل الخمسينات بدأت ضربة المحراث الضرورية فى تربة الأدب الإسبانى ، إذا كانت قبلهم تدور حوادث القص حول الرعب والرومانسية ، وكانت هذه النزعة تساوق حالة المجتمع الإسبانى انذاك ، وبدأ النقاد معهم يتحدثون عن الواقعية بكل نزعاتها ولم يكونوا يتهمون فى الجيل السابق عليهم بمثل هذه الأشياء (١٤) ، وقد بدأ النشر للقصة الواقعية لزملاء إجناثيو فى مجلات مثل Alcala, La hora, La juventud, Haz وغيرها من المجلات الذائعة فى تلك الفترة ، والتى أذاع من خلالها إجناثيومعظم

---

(١٣) راجع القصة بيت لحم ، ليوسف إدريس ، مكتبة مصر

(١٤) صفحات متفرقة Uease : El Cuento Espanol

قصصه القصيرة .

وقد أكد معظم النقاد على النضج المبكر الذى ظهر به الديكوا يقول :

Ede wora يبدو الديكوا ناضجا بصورة مذهلة منذ بداياته ، (١٥) ، وتقول : Alicia Bleiberg، مدهش هذا النضج المبكر الذى أحرزه الديكوا فى أول أعماله ، El Fulgor yla sangre 1954 ، . (١٦) .

وهذا النضج المبكر سمة فى الفنانين الكبار فى العالم ، فربما ترى فى أول كتاب ينشره كاتب مثل هذا النضج الذى لا تزيده الايام إلا وضوحا واستقرارا ، وقد وضع يده من قديم على أسرار الفن ، وملموح هذا فى أمثال أونامونو ، والعقاد والمازنى وغيرهم من كبار الأدباء فى العالم ، وقد لا حظت أن الذى يبدأ شاعرا مستحض الملكة يقف على أسرار الجمال فى اللغة ولا تفارقه هذه الاسرارحتى وهو يفارق الشعر إلى فنون القول الأخرى كما حدث مع المازنى والديكوا مثلا .

وما نظن أننا بحاجة الى استعراض قصص هذه المجموعة لئلا نأخذ على القارئ متوجهه ، فالفن عموما ماكر يقبل التأويل حتى المتناقض منه ، إذ أنه يستخدم الأسلوب الكنائى – بالمعنى الواسع لهذه الكلمة – والكتابة لا ترفض المعنى الأول ، بجانب المعنى الثانى ، أو المعانى الثوانى ، التى هى وكد الفنان فى النهاية والبداية .

إن فن الديكوا إدانة للزيوف الكثيرة التى عاناها إنسان مابعد الحرب ، وكشف للقهر الأنسانى ، الذى تمارسه السلطات الدكتاتورية فى أى بلد

(١٥،١٦) Uease : Cuentos Completos : Alicia Bleeiderg. صفحات متفرقة

كـان ، وإبـانة عن العـوائق التـى تمنع التـطور الطبـيـعـى ، دون سطحـيـة ومـبـاشـرة ، بل بمكر رفـيع المسـتـوى لغة ومضـمـونا ، وتكاد شـخـوصـه تجـاذبنى الـودادة والعطـف ، أراها فى مـداخل المتـرو ، وعلى الأرصـفـة ومـحطات القطارات ، وعلـى دكك الشـوارع ، تشـرب النبـيـذ ، وتدخن التـبغ الرخـيص ، وتنتـفـض من البـرد ، ويعـضـهـا الجـوع ، أى تعـيش الحـيـاة الطبيـعية تجالدها وتتـوفزها ، ولا نحسـبه من أجل هذه الموضوعات كـاتبا اشـتـراكـيـا مـغلقـا ، بل هـو كـاتب إنسـانـى رحب النظرة ، جيـد المضـمـون والأداء .

ولد Ignacio Aldecoa فى بيـتـوريا Alava , Vitoroa مـن بـلاد البـاسك فى الرابع والعـشـرين من يوليـو ١٩٢٥ ، وتوفى فى مـدريد فى الخامس عشر من نوفمبر ١٩٦٩ ، من جراء أزمة قلبية مفاجئة ،وهو فى

إبان النضج والاستواء ، ونحـسبه مع هذا العمـر القصـير قد إستـوفى كل إمكاناته الإبداعية دون أن نقـول مع القائلين : لو أفـسح له فى أجله لملأ الدنيا إبداعا .

بدأ دراسـتـه فى كلـيـة الآداب والفلسـفـة فى جـامـعـة مـدريد ، ثم هـجـر الدراسة ليتفـرغ للأدب ، متزوج من الكاتبة خوسيـفينا رودر يجيث الديكوا

Jose Fina Rodriguez

كان صـديقـا للكتاب : رفـاييل سانشث فـيرلوسـيو ، مـؤلف رواية El Jarama الذائعة الصيت ، وخـيـسـوس فـرناندث سـانتوس ، وكـارمن مـارتين جايتى وآخرين ،

من اهم اعماله المنشورة : اولا : الشعر :

- وما تزال الحياة Todavia la vida ١٩٤٧
- كتاب الطحالب Libro de las algas ١٩٤٩

ثانيا : الرواية :

- البريق والدم El Fulgur Yla Sangre ١٩٥٤
- مع رياح الشرق Concl uient solano ١٩٥٦
- الشمس العظيمة Gran sol ١٩٥٧

وحازت جائزة النقد ، وجران سول هو اسم المركب الذى كان يقل الصيادين ، وربما كانت ترجمة العنوان غير مطلوبة .

- جانب من تاريخ Parte de una historia ١٩٦٧

ثالثا : القصة :

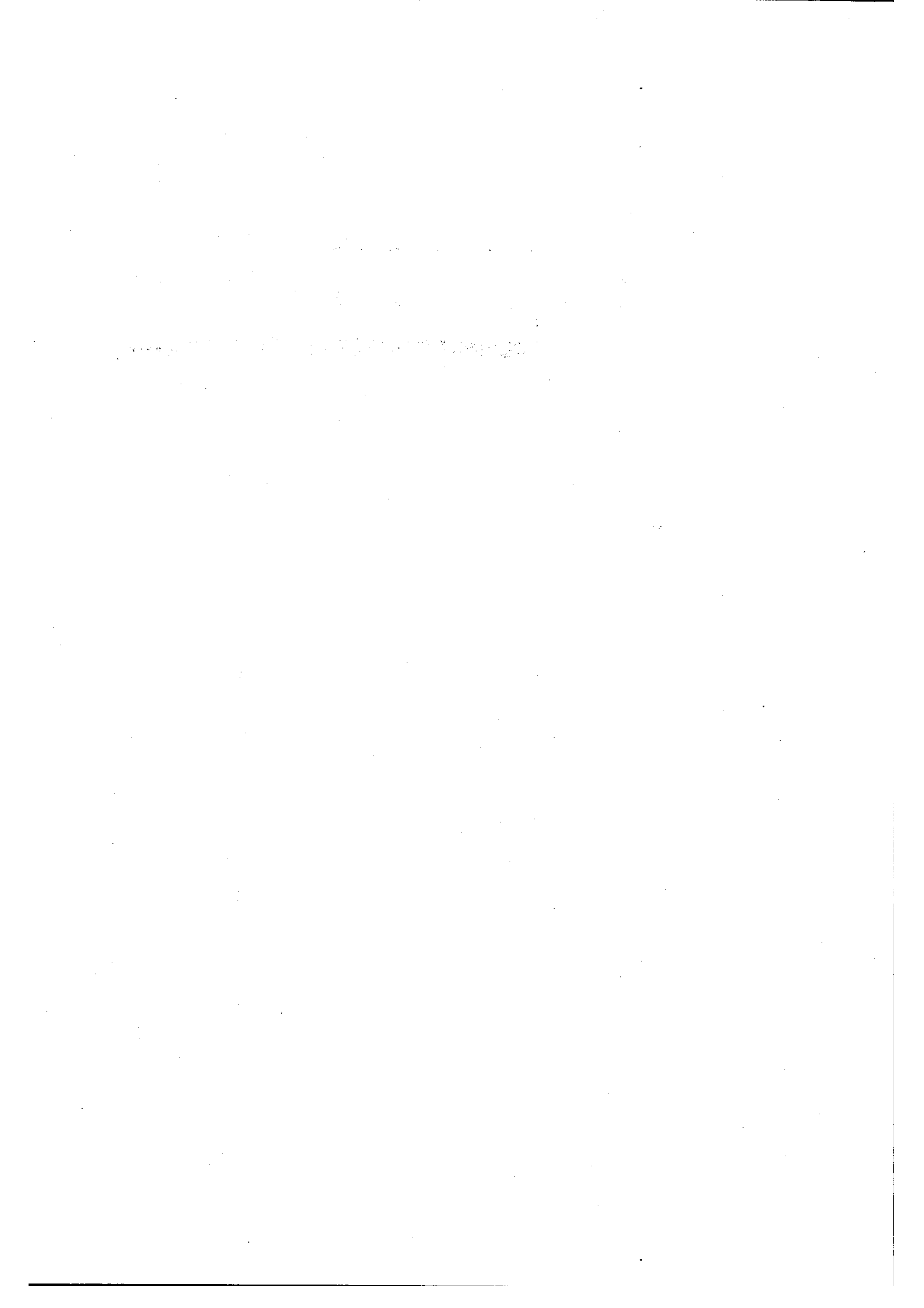
- ما بعد الصمت Dispues de silencio ١٩٥٥
- انتظار الطبقة الثالثة Espera da tercera clase ١٩٥٥
- القلب وثمار أخرى مريرة El corazon yotros Frutos amargos ١٩٥٩
- سجل القوطى Cuaderno de God

إلى جانب المجموعة القصصية الأخرى التى نشرت بعد وفاته ، وأمامى مجلدان كبيران يضمان هذه القصص .

أما الترجمة فبقى أن نقول إننا لم ندخر وسعا فى التدقيق وأداء العبارة العربية الواضحة كما هوالحال فى ترجماتنا السابقة ، إلا أننى مع هذه القصص حاولت كثيرا أن أتخفف من جزالة العبارة العربية التى لا أتخفف منها فى ترجماتى للشعر والنقد ، لمعرفتى أن قارئ القصة غير قارئ الشعر والنقد ، وكنت أجد عنتا فى هذا التخفف لأنه مكلفنى ضد طباعى ونحيزتى اللغوية ، ولكنى مع ذلك لم أتخفف من جماليات الصياغة ماستطعت إلى ذلك سبيلا ، وحسبى وحسب القارئ أن يطالع صفحات جيدة من القصص الإسبانى الرفيع ، وموعدنا القريب معه فى رواية « مع رياح الشرق » لنلج إلى عالم الغجر وغرائبه واسراره ،وعلى الله قصد السبيل .

أبو همام .

قلبان وظل



قلبان وظل

ذاع الخبر فى الصباح ، سوف تتزوج ماريا فى الأيام الأولى من يونيو ، تحدثوا بذلك وقت الغداء ، كما تحدثوا أثناء تناول القهوة ، وفيما بعد فى الساعة الرابعة ، عندما تسلل من الشرفة ضوء الربيع مفضضا عبر منخل الغيوم ، كانت لويسا هى التى قطعت حبل حديث زواج ماريا حينما غابت لتغسل الأطباق وأدوات المائدة المستخدمة فى الغداء ، فاليوم هو الأربعاء ، وأعمال البيت تتم بالتناوب .

كانت كارمن تود أن تفتح باب الشرفة على مصراعيه ، إلا أنها كانت تخشى ريح أبريل الشمالية ، خشية معهودة من قديم ؛ فريح أبريل الشمالية تجلب أمراضا ، وتذكر بلزقات الطفولة ، وبالأشباح التى تمر عبر سقف الغرفة ، تنتظر حتى تنتهى أختها من شغل الإبرة الموضوع فى حجرها ، والنظرة الضائعة فى السكرية الفضية المتروكة فوق المائدة ، وهو الموضوع الرمزى لكل الأصائل طوال حياتها ، ارتجفت حين أعادت كرَّة الطرف إلى الشرفة ، ذات الزجاج المشابه للمرايا الميتة ، اللبنية فى وداعة الغروب .

كانت الغرفة تستحم فى ظلال ضاربة إلى الزرقة ، متداخلة حتى تحتمى من العتمة ، ومن بياض الشرفة الجاسى ، لكى تحتفظ بلونها الخاص فى خمارها الأسود ، شبكت ذراعيها ، وعلقت أنفاسها إلا أن أذنيها تراقبان الهمهمة الأخيرة فى المطبخ ، مشْىُ لويسا المألوف على

أطراف أصابعها ، يحدث دائما مفاجأة ، تشويشا سمعيا ، توبيخا .

- تهتف كارمن : لقد أزعجتنى .

- ترد لويسا : لم أرد أن أحدث خطوطا فى الأرض ، وبعد ذلك على أن أمسح الأرض .

جلست لويسا فى كرسى مواجه لأختها ، تحدثتا عن زواج ماريا التى أتمت ثلاثا وأربعين سنة فى الخامس عشر من يناير ، واحتفظت بصحتها جيدة ، حتى بداية الشتاء ، الذى انحرفت فيه صحتها كثيرا ، ولم تعد فى وسعها إخفاء التجاعيد ، وإن كان من المحتمل أن يعيد إليها الزواج نضارتها .

- تسأل لويسا : أشعل النور ؟

- نعم ، وأغلقى الأبواب والنوافذ .

مضت إلى الغرفة فى صمت ، مرت ثوان من الظلمة والصمت ، ثم أغرقت اللمبة ذات الأهداب الحمراء الحجرة فى ضوء مشوش ، وأضفت على الأركان وتحت الأثاث ظلالا تفترق وتتجمع ، ثم عادتا تتحدثان عن ماريا تلك الصديقة التى كان لها خلال بعض أشهر الحرب - بالتحديد خمسة أشهر -خطيب . كان ضابطا فى الجيش ، وجرح فى جبهته جرحا جعله لطيفا أثناء فترة نقاهته، وربما أنه ليس من المدينة فقد اختفى الى درجةأنها لم تعد تعرف عنه شيئا، يتحدثون عن أشياء غير معقولة، وان بدت أحيانا محتملة، فإن ماريا.... اذا كانت عرفت أو لم تكن تعرف فإن الخطيب على كل حال لم يكن غافلا عن التى سيتزوجها ، ففى المقهى أو

الكازينو ، أو المكتب ، أو الشارع، وفى ردهات السينما أو المسرح عند الخروج ، وفى مداخل مباريات كرة القدم فى أيام الآحاد ، بعد صلاة الساعة الثانية عشرة، والذهاب الى الصيد، كان يمكن أن تكون لديه فرصة لمعرفة الخبر.

طرق الباب ، وقد جدد طرق الجرس المتوالى فى سكون المنزل خوفها وقلقها العميق، نهضت كارمن ولويسا واثبتين، شلة الصوف التى تشغلها كارمن تدحرجت حتى الظلال تحت المائدة، فتاهت فى الظلام.

– من يكون الطارق ؟

– تقومين أنت ؟

– قومى أنت

– انك تعرفين .

– تنتظرين أحدا ؟

– لا.

– انظرى من خلال العين الزجاجية .

– لا بد من وضع سلسلة، هذا ما أقوله لك دائما.

– لا تفيد شيئا.

– تقومين أنت ؟

خرجت لويسا الى الممر تفرك يديها بعصبية، كان الدور عليها، تشعل الأنوار، وعندما وصلت الى الباب تيقنت أن كل شىء منظم، وأن معطفا رجاليا معلقا على المشجب ، وفوق الكرسى المجدد قبعة سوداء رجالية ،

وفى صندوقُ المظلات عصوان ومظلة رجالية ، فتحت شرّاعة الباب ونظرت.

- سألت : من الطارق ؟

انطفأ نور السلالم ، قبل أن يجيب أحد.

- خدّامك .

- ماذا تريد ؟

- آنسة لويسا وكارمن فرناندث ؟ معى طرد .

فتحت الباب ببطء ، واجهت فتى فى العشرين، يبتسم، بينما كان يقدم لها بيديه طردا كبيرا .

- قال الفتى : لا بد من التوقيع .

عادت لويسا ونادت :

- بابا ، بابا ، عليك أن توقع .

كارمن من حجرتها دحرجت كرسيها ،

- لا يا آنسة ، ليس من الضرورى، بما أن اسم حضرتك ورد مع الاسم الآخر ، فوق الطرد فيمكنك أنت أن توقعى .

قدم لها الفتى قلما، فوقعت لويسا .

قال الفتى : شكرا جزيلا، أسعد الله المساء .

لويسا قلقة ، متلعثمة عند التوديع ، أغلقت الباب بالمزلاج

- سألت كارمن : من كان الطارق ؟

- رسول حمل هذا الطرد .

- أى فزع يا ابنتى ! لن أتعود أبدا .

– ولا أنا، حينما أسمع صوت الباب أقلق.

– هنالك لم أشعر بخوف مطلقا، لكن هنا فى مدريد...

أخذت كارمن شلة الصوف

– يبدو لى أنها ثياب ، أو شىء من هذا القبيل .. الجرس هو الذى يزلزل مفاصلى ، فى تلك البيوت .. الكبيرة ، ولا تعرف الواحدة منا أحدا...

– وكل يوم تحدث حوادث، هل قرأت ما نشر اليوم ؟

– لا ، هذه ثياب ، سأحكى لك أنا.

فتحت الطرد ، فيه قميصا نوم أسودان .

قالت كارمن : انهما رقيقان

– لكنهما من النايلون ، وهذا يسبب لى حساسية جلدية .

– أيهما أكبر ؟ قيسيهما.

– ليس ضروريا ، يظهر المقاس بمجرد النظر .

– هذا هو قميصك أنت .

تابعت كارمن شغل الابرة .

– قالت لها : يمكنك أن تتركى قميصى فوق سريرى .

خرجت لويسا من الغرفة ، لكن الحديث لم يتوقف ، وانتظرت ، كانت كارمن تتحدث عن ماريا وخطوبتها .

– مرات كثيرة أفكر أننا ارتكبنا خطأ بمجيئنا الى مدريد ، كان علينا أن نظل هنالك ، كل شىء هنالك سهل ، وان كنا ... حسنا من يدرى !؟ مازال لدينا متسع من الوقت .

كان صوت لويسا بعيدا ، وغامضا ، لأن نبراته كانت خفيضة .

- هنالك عشنا أربعين عاما، فماذا كان ؟ قولى لى: هل تزوجت أنت ؟ هل تزوجت أنا ؟ هل عشنا مرة واحدة بصورة طبيعية ؟

- نعم ، لكن ها أنت ترين ماريا .

- حينما يسعد الحظ واحدة ، لايعنى ذلك أننا لا يسعدنا الحظ ، عندما مات أبى ، انخفض رأس كل شئ ، ولم يكن أمامنا إلا أن نجئ إلى مدريد ، لاتفكرى كثيرا .

- يبدو أن الواحدة هنالك فى حماية أكثر .

- حماقات ، هنالك ، كل شئ كان التزامات ، ما كان يمكننا أن نتمها أبدا هنالك كل شئ مطلوب ، وغير مستطاع ، ونزع رقعة لترقيع أخرى ، حماقات إننا هنا بخير فى مدريد ، أو على الأقل أفضل من هنالك ، هل تتزوج ماريا ؟ وماذا عنك أنت ؟

خمنت كارمن المسافة التى بينها وبين أختها بحسب صوتها ، أخفت مشيتها الوانية ، حينما دخلت لويسا الغرفة ، ساد صمت ، ثم قالت :

- ماذا أعد للعشاء ؟

- أعدى حساء الثوم ، فأنا حسبى حساء ثوم ، وعجة بيض فرنسية .

- حسنا ، فالوقت مازال مبكرا .

لم تعودا تتحدثان عن ماريا وخطوبتها ، كانتا تتحدثان عن أهالى المدينة الصغيرة ، حيث رياح أبريل الشمالية تحمل أمراضا ، وعبق رطوبة

الحقول ، وصبغ أجراس الأديرة ، والمحطة البعيدة ، وصرير الخطاطيف ، وصفير المركبات المتصاعد إلـــى الجبال ، تتحدثان عن عشرين سنة ماضية ، وعن ضباط وسيمين جرحى ، وعن الإيطاليين ، تتحدثان عن منزلهما حيث كان يعيش أبوهما ، تتحدثان بالتفصيل ، عن ذكرى الأشياء التى كانتا تمتلكانها ، وعن الأشياء التى كانتا تحلمان بها ، تتحدثان عن الفساتين ، وعن الأفلام كل أصيل ، وعن رجال عرفتاهم ، وهم شباب ، والآن لديهم أســر ذات عـدد ، تتحدثان حتى دق جرس الهاتف ، لم يفزعهما ، ولم يهتز البيت من أعماقه ، ردت لويسا على الهاتف ، وحينما عادت إلى الغرفة قالت :

- إنه خايمى ، سيحضر على العشاء .

- كنت أتوقع .

- إذن ، ماذا أعد ؟

- ثمة شئ من لحم الخنزير المقدد فى الخزانة Alacena ، أعدى له أيضا عجة .

- وقبل هذا ؟

- حساء ، وافتحى علبة أى شئ ، هل يوجد نبيذ ؟

- نبيذ نعم ، أى علبة أفتح ؟

- ما يخطر ببالك .

خرجت الأختان من الغرفة ، ذهبتا إلى المطبخ .

كان المطبخ صغيرا جدا نظيفا جدا ، وفى الخزانة قطع قماش

كثيرة ، وفوط مختلفة ، وخرق ، ومزق معلقة فى مشجب من البلاستيك .

- كنت أود أن أذهب إلى السينما .

- الداران القريبتان منا رأينا أفلامهما .

- إذن فلنلعب الورق ، هل تريدين ؟

- حسناً .

لم تعودا تتحدثان عن المدينة الصغيرة ، كانتا تتحدثان عن خايمى ، عن عمله الذى يقوم به ، عن قوته ، عن طوله الذى كان ، وعن احتفاظه بصحته فى سنه تلك ، تتحدثان عن الصيف ، وعن احتمال استطاعتهما الذهاب إلى شاطئ ما فى بلنسية ، فمن المحزن أن تبقيا فى مدريد ، حينما دق جرس الباب مرتين بعصبية ، قلق البيت ، ولكن ليس بسبب الخوف ، كارمن التى كانت تساعد أختها خلعت الصدار ، وخرجت تفتح الباب ، كان خايمى ، فكرت لويسا أنها بعد العشاء فى الغرفة الصغيرة حيث تقضيان الأصائل ، وبعد أن تتكئا على خايمى تخرج تاركة الاثنين معا ، وتذهب إلى غرفتها ، تحاول أن تقرأ قصة ، إلا أنها لم تستطع ، ربما تنام متأخرا جدا ، وفى قلق ، لم يكن اليوم يومها ، سمعت خطى خايمى الذى كان يمسح الحذاء حيث كانت هى تمشى بخطوات صامتة ، قال خايمى بود :

- أسعدت مساء لويسا الصغيرة . . غدا . . .

«غدا» كانت كلمة طيبة ، وبذيئة بالنسبة للآنسة لويسا .

فى الشاطئ الآخر

فى الشاطئ الآخر

من الداخل ، وخلال فتحة الباب ألقوا مياه الدلـو القذرة فى الشارع ، الكلب الغافى قريبا من عتبة الباب فَرّ بخلفيتيه خوفا ، كأن ذئابا تطارده ، ذنبه المجدوع ضائع بين ساقيه ، توقف عن الجرى بعد عشرين مترا تقريبا ، فى شمس ساطعة ، انتفض ، أدار رأسه متحفزا للعداء ، لم يسمع شئ ، نص أذنيه ، توجس حذرا ، عيناه فى احمرار عارض ترقبان فى توجس ، نبح فزعا ، نباحه جعله يقشعر ، عوى ، صمت ، كل شئ هادئ متوحد ، طأطأ رأسه ، تشمم الأرض ، أزمـع أمرا بطيئا بطيئا اقترب ، توقف بعد جولتين ، استوثق ، تقدم مسرعا ، الأرض موحلة ، رطبة ، دفعته إلى البحث عن مكان آخر حيث يقعى ، دار دورات متوقفة وبطيئة حتى تمدد ، بعد لحظات قلائل نام مستغرقا .

من داخل الخص ظلمة ، ظلمة مثقلة بالوسن ، امرأة تغسل أطباقا معدنية فى حوض ، رجل ينام فى العمق منطرحا على الأرض ، رأسه متوار تحت جريدة مفتوحة مطوية من المنتصف ، نصف جسده مغطى بقميص مقطوع ، ونصفه الآخر عار ، طفل نوكرش يتحرك - فى خرق - مع جرو من جانب لآخر ، تسوى المرأة شعرها بظهر يدها الممتلئة المحمرة ، تخرج من الماء دهونا ، وقذارة ، وفقاعات ، تميل برأسها نحو الصندوق تبيض سطحه بخرقة ، تبدو زهرات فى أصيص فرحة ، الوقت ينقض من خلال منبه :

- مارتين !!

تنادى المرأة فى رقة ،ربما فى شئ من الخوف ، الرجل النائم لم يتحرك

- رفعت صوتها : مارتين ، الساعة الآن الثالثة ، الرجل النائم يتحرك قبل أن يبسط ساقيه ، ينهض دفعة واحدة ، يزيح الجريدة ، فتصر بين يديه ، ينفخ ، يسأل بعد النفخ :

- الساعة الثالثة يابرودينثيا ؟

- نعم ، الساعة الثالثة ، لابد أن تذهب إلى المدينة .

ينهض الرجل

- نعم ، نعم ، بالتأكيد .

الطفل الجالس على الأرض يرفع شيئا ما إلى فمه ، تنظر إليه برودينثيا

- باكيتو ، يا خنزير ، ألق ما فى يدك .

يحار الطفل ، بعينين مترقبتين .

- ألق هذا يا بنى ، وإلا ضربتك أمك .

هذا هو المنظر اليومى ، مارتين يمد ساقيه ليعبر فوق الطفل ، يطل من الباب ، يبهره الضوء الشديد ، يعود إلى الداخل

- برودينثيا ، هل بقى قليل من الماء لأغتسل ؟

- نعم ، يا رجل .

- يالحرارة هذا اليوم ، النهر يأتى كل مرة منخفضا عما قبلها .

تتذكر برودينثيا :

– لاتنس الأوراق التى سوف يطلبونها منك .

– إننى أحملها فى الچاكتة .

– حسنا .

أثاث الخص قليل : مرتبة من الخيش والقش ، بعض الصناديق الفارغة ، حقيبة من الكرتون حوافها من جلد بائس ، دلّوان ، أطباق معدنية ، قدور مدخنة ، الثياب معلقة على مسمار بجانب الباب ، بطاطين مثنية تشكل مسندا لمقعد منجد ، موضع للخرق .

الكوخ مبنى من حواجز ، وصفائح ، وحجارة ضخمة ، وآجر قديم وأغصان ، وأوراق مطلية بالقار فضلا عن أشياء أخرى يعسر وصفها ، الأوراق المطلية بالقار مغطاة بالطين الجاف ، لئلا تتطرى بالحرارة ، وبالرغم من احتراسات مارتين تتهاوى بعد الشدات الخفيفة السوداء من بعض روابط السقف ، وتسيل مسايل عبر الحوائط .

يفوح الخص برائحة القار ، برائحة طبيخ بائت فى معسكر ، برائحة الحيوانات ، فى فظاعة ، برائحة القذارة والبؤس ، تسمع ضجة الصفيح ، طنين الحشرات ، تئوه الخشب الجاف من الشمس يطول ، من بعيد يسمع من شجرة على شاطئ النهر صوت طائر رتيب ، تنام تلك الساعة فى مآويها الضفادع التى تنقر الأجفان فى المساء ، تنام الحشرات التى تفزع نوم الطفل فى الهزيع الأخير من الليل .

هذا هو خص مارتين خورا دو ، خص من جملة الأخصاص التى

تنتشر على شاطئ النهر الأيمن ، فى مواجهة المدينة الجميلة البيضاء على الشاطئ الآخر .

اغتسل مارتين ، استعد للذهاب ، توقف عند خروجه لأنه رأى زنبورا يحوم حول رأس ولده ، وهو شارد بلعبته التى تسم الأرض بمسمار قديم ، مارتين يطوح فى الهواء بقبعته القديمة الخشنة المشحمة من جوانبها ، ذات اللون الدخانى وبدون بطانة ، أطاح بالزنبور ، احتضر ، تهاوى حنقا ، خرج مارتين فى سطوع الحقول الباهر خارج المدينة : مجتمع الطارئين ، الواصلين إلى المدينة بحثا عن عمل ، صامت منعزل ، يبدو غير مأهول ، استبدل الطائر شجرة بأخرى ، يترقرق النهر ، يتأمله مارتين لحظة بعد عبوره الجسر ، التيار ضعيف ، لاتتحرك نباتات الماء البعيدة ذوات الزغب ، يمشى مارتين فى سكون ، وجهته إلى المدينة ، وخلفه يقبع مخيم أناس خارج المدينة .

بروديتثيا تريد أن تنزع من يدى ولدها المسمار القديم ، الذى يدهس به الطفل جثة الزنبور المحتضر ، أبى الولد ، كان على الأم أن تغير المسمار بمشط مكسور ، هذه اللعبة البسيطة أبهجت الطفل ، تسللت من المشط حشرة محبوسة عنيدة ، مشت بروديتثيا إلى الشارع ، ينام الكلب متدفئا بالشمس ، يتقلص الظل مع تقدم النهار ، كلب نحيل ، قليل النمو ، كلب من سلالة ألف أب ، ليس فيهم أب حسن ، كث الشعر ، أبيض رمادى ، فمه فم قرد ، كلب شمام مزابل ، ملهاة الأولاد القاسية ، غير صالح للصيد ، استيقظ متضايقا من الحرارة ، تهتز خاصرتاه ، لسانه

خارج ، ، تدخل بروديتشيا والكلب وراءها ، يقترب من الطفل ، يضع يده في فمه ، ثم يشد أذنيه ، يلعقه الكلب ، بروديتشيا تضع ثيابا فى الدلو ، فوق الثياب قطعة صابون صغيرة فى لون الكرنب .

- تحب أن تذهب معى إلى النهر يا باكيتو؟

تمتم الطفل ، فى يدها باكيتو ، وفى الأخرى الدلو بحمالته القصيرة ، حين خرجت لم تغلق بروديتشيا الباب ؛ فغلقه عديم الجدوى، مشت بسرعة ، ساقاها بيضاوان ، فيهما زغب ، وبهما دوال زرقاء ، مارتين يدور فى المدينة ، حين وصل هو وأسرته تقدم إلى محلات النقاشة بحثا عن عمل ، فهو نقاش بفرشاة غليظة ، عادية ، هناك فى قريته الكبيرة اشتغل فى كل شئ ، وبرغم ذلك فقد قرر أن يرحل بنصيحة الجوع ، كان يعتقد أن الفرص منتظرة على نفس مداخل المدن الكبرى ، وعلى أبوابها ، لكن فى مداخل المدن الكبرى ، وفى قلب المدن الكبرى الفرص بالنسبة للغريب الفقير تختفى فى انفلاتات الحيتان المضحكة ، حين يُخيل للمرء أنها فى يده إذا بها تطفر ، تمضى ، ثم تقبض اليد على لاشئ ، أو على اليأس ، أو على قليل منه .

استقر مارتين خواردو مع أسرته على شاطئ النهر ، فى مواجهة المدينة ، مثل طائر أسود فى قرية ، ينهض طائرا - فى عجلة نحو أى مكان أو إقليم حيث يستطيع العمل ، ابتسم مارتين حين وصل ، لكن شفتيه مزمومتان جدا ، والآن . . . .

والآن مارتين خورادو لا يزال يدور فى المدينة ، غريبا من شاطئ

لآخر ، يتنفس ريبة ، أولا مشكلة البيت وأهل المدينة ، ثانيا مشكلته هو ، وجيرانه ، أحس مارتين بالغربة ، إنهم بعيدون عن المدينة وللمدينة تخوم دونهم .

التقى مارتين بجار له يستند على ناصية بجوار إعلان كبير للمسرح .

- سأله : ماذا تفعل هنا ؟

- وأنت ؟

- ينكمش منكبا مارتين

- لا أدرى . . .

- هل عثرت على شئ ؟

- لا .

يتبادلان النظرات ، تزوغ عينا الجار ، يتابع بنظره سيدة عجوزا تتوكأ على عصا ، وتستند بذراعها اليمنى على سيدة شابة .

- يقول مارتين : الأمور كل يوم تزداد سوءا .

- يجيبه الآخر - يبدو غير مبال - :

- نعم ، كل يوم تزداد سوءا .

- تعرف متى الساعة الآن ؟

- الثامنة على الأقل .

- إذن ، أعود إلى هنالك ، هل تصحبنى ؟

- لا ، سأبقى .

بدأ مارتين يمشى دون أن يتفادى الناس ، خطر له أن ينظر خلفه ، وقع نظره على الناصية ، فرأى جاره باسطاً يده فى حركة خائفة يستجدى ، ألقى أحدهم شيئا فى يده .

لم يعرف مارتين هل ما حدث هو ما شعر به ، حث الخطى ؛ بحث عن الشوارع الخالية ، هبط نحو النهر ، عبر الجسر ، الظلال تسوِّد المياه ، أشعة الشمس الأخيره تنعكس من خلال السحب بقعا حمراء ، نزل مارتين إلى الشاطئ .

على أبواب الأخصاص يتحاور السكان فى جدل ، إجتاز مارتين أربعة منها ، خامسها خصه ، زوجته جالسة مستريحة على صندوق ، الطفل فوق ركبيتها ، عرفه الكلب على بعد خطوات ، رأته برودينثيا يصل ، قالت له :

– لاشئ ، حقا ؟

– لاشئ .

– حسنا ، اجلس يا رجل .

نهضت برودينثيا ، تاركة المكان لزوجها ، ظلا صامتين ، بدأ مارتين يتحدث فى بطء شديد .

– علينا أن نعود إلى القرية يا برودينثيا .

– أتعتقد أن علينا أن نعود ؟

– نعم لابد من العودة .

سكت مارتين ، ثم عاد يؤكد :

– نعم ، لابد من العودة .

– حسنا يا مارتين ، ماتريد ، لكنك عارف أن هنالك . . . .

غمرت الظلال النهر كله ، ماتزال المدينة فى الشاطئ الآخر ساطعة عالية بيضاء فى الغسق الضارب للزرقة ، تطير الخفافيش فوق المياه ، تتجاوب الضفادع .

– أشعل الكربون يا مارتين ؟

– لا ، إنه يجلب البعوض .

– لقد أعددت لك قليلا من الطماطم يا مارتين .

– حسنا يا امرأة .

نام الطفل فوق صدر أمه .

– برودينثيا ، لن ننتظر حتى نستجدى الناس ، إنهم يدفعوننا إلى هذا ، غدا نرحل .

– غدا ؟

– نعم ، سيعطوننا تذاكر من المجلس المحلى ، لاتهتمى .

لاذ الكلب بساقى برودينثيا ، استيقظ الطفل ، خفضت برودينثيا صوتها ، ربتت على كفل ولدها ، أصبح الصوت مثل النفخ .

– نم يا صغيرى ، نم

بدأت تدندن بأغنية يغنيها بائعو الزيتون فى بلدها

مارتين خورادو نظر إلى خفير الليل ، سماء صيف عميقة ، همس :

– برودينثيا ؟

– ماذا ؟

– ماذا تقولين ؟

– ما تقوله أنت ، إذا كان الشاطئ الآخر ليس فيه شئ . . . .

– لا ، ليس فى الشاطئ الآخر شئ .

تنهدت بروديتشيا ، تسلل من النهر نسيم رطب ، نهض مارتين أخذت المدينة تفقد بياضها ، تنتشر الظلال أمام آلاف الأعين ، دخل مارتين إلى ظلام خصه .

باروكة دون رامون

باروكة دون رامون

كان أشقر ، سمينا ، كبير العجز ، أمه مسيحية صالحة ، أبوه مجتهد جدا فى عمله ، اسمه رامون مارتينث غرثيه ، وإن كانوا ينادونه أسريا بلقب قريب من اسم بطارية المطبخ ، فيقولون له فى المنزل : سنيوريتو كوشين .

حين كان كوشين فى المدرسة ، كان يحرز أعلى الدرجات ، لم يشارك قط فى الألعاب العنيفة مع أصحابه القليلى الذكاء ، الشعث ، القذرين ، الذين ينشرون رائحة خاصة من العرق ، والحبر ، وأقلام الرصاص المبرية لتوها ، ونشارة العرق سوس ، حين بلغ سن التعميد الأولى اختير مقدما فى الصلاة .

كانت أمه فى ذلك اليوم جزيرة من السعادة ، محاطة بالتهنئات ، تتخايل كتمثال نصفى ، تتبدى بصدرها الضخم ، بين نهديها يتدلى صليب ذهبى ، وسلاسل لامعة ، ترشح زهوا ، باطلا - مثل الديك الرومى - فى نفختها البرجوازية .

يكبر الطفل ، حين تزورهم - فى مرات كثيرة - زيارات مهمة تنادى الأم ولدها ، لكى يعرض مواهبه ، فإذا كان كوشين يذاكر فإن الأم تقص فى تفخيم :

- تعرفين يا ماريا ، لقد وضعنا له برنامجا دراسيا ، فالولد مجد جدا ويستحق التضحيات التى يبذلها والداه .

وحـــين لايكون كـوشـــين فى مـذاكـرة تدعـوه إلى غـرفـة الجلوس مفخمة إياه :

– تقول له أمه : هيا نرى يا كوشين : أنشد لنا تلك الأنشودة الجميلة التى تعلمتها فى المدرسة هذا الأسبوع .

يصعد الطفل حالا فوق كرسى ، يبدأ ، يتخذ سمت شمّاس ردئ :

اندهش برتغالى

أن رأى فى طفولته الأولى

أن كل أطفال فرنسا . . .

تتـحـول الزيارات إلى ألسنة ، تتـحـدث عن ذكـاء كوشـين ناصـحـة ، مضخمة ، وساخرة :

– ما أجمل هذا ، ما أجمل هذا !! لا تذاكر كثيرا يا كوشين ؛ لأنك سوف تصير أصلع .

بعد ذلك يحيطونه بدائرة استفهام ، فيجيب فى تقرير حاسم .

– كوشين ، ماذا تريد أن تكون ؟

– وزيرا يا سيدتى .

– لكن ، ألا يعجبك أن تكون مهندسا مثلا ؟

– لا يا سيدتى ، سأكون وزيرا .

لإحداهن ولد يود أن يكون رجل إطفاء ، وآخر يود أن يكون فاحص عدادات ، تندهش ، تسأله ملذوعة منه ، باحثة عن مواطن دغدغته :

– لكن ، ألا تظن أن هذا الأمر عسير جدا يا كوشين ؟

– لا يا سيدتى .

تتدخل الأم بالطبع ، ضاحكة من إجابة ولدها :

– انظرى ياخو سيفينا ، حين يقول الولد هذا ، فلابد أن يكون كما قال ، إنه عقلية فذة !! أستاذ الرياضيات – وشهادته لها وزنها – قال لى ذات يوم ، حين ذهبت إلى المدرسة لدفع المصروفات : «سيدتى ، حضرتك من حقك أن تشعرى بالزهو بابنك ، لقد تعلم القواعد الأربعة بسهولة شديدة ، وفى مرة واحدة ، وغيره يتعلمها فى خمس مرات» .

تؤمن الزائرة برأسها ، ما بين ناكرة ومتشككة

أخيرا يصل الأب من مكتبه ، يفرك يديه ، يضحك كالعجل ، بعد أداء التحية يسأل :

– أين كوشين ؟

– يذاكر يا مارثيلو

– هيا ، قولى له يحضر .

تومئ الأم فى فخامة ، تنادى وليدها

– سيرافينا ، سيرافينا .

تبدو الخادم

– أمرك يا سيدتى .

– من فضلك ، نادى على السنيوريتو كوشين ، وقولى له يحضر حقيبة المدرسة ، فقد حضر أبوه .

قبّل الطفل فى تهذيب وتبجيل خدى والده ، الذى تكاد بطنه تنفجر مثل

بطيخة ضخمة .

- هيا نرى ، ماذا درست اليوم ؟

- خمس مسائل يا أبى ، ومحافظة خيرونا

- لاتقل مسائل يا بنى ، تعود أن تطلق عليها عمليات . هل تعرف الآن محافظة خيرونا ؟

- وكل منطقة قطلونية يا أبى .

- حسن جدا ، هل من عمل متقدم ؟ لكى تكون رجلا نافعا ، لابد من العمل ، اتخذ أباك أسوة ، لم يكن شيئا والآن انظر : رئيس قلم من الدرجة الأولى ، ولا يزال شابا .

تتدخل الزائرة:

- لاتزال شابا جدا يا مارثيلو .

- شكرا ياخو سيفينا .

يبدأ دون مارثيلو فى تفحص دروس الطفل

- روافد الـ . . . .

«بام ، بام ، بام» * كلهم يقولون هذا ، تسأم الزائرة ، تستأذن ، تمضى - شديدة الغيرة ، غاضبة - نحو بيتها ، أولادها فى تلك الليلة يدفعون ثمن معارف كوشين الجغرافية والرياضية ؛ صفعات ، ونوما دون عشاء .

نمت معارف كوشين ، وإن لم تَتَمّ قامته ، إذ أن أردافه لاتزال تحتك

---

* محاكاة صوتية - المترجم

بالموائد ، أنهى الثانوية بامتياز ، وحاز شهادة الحقوق بجيد جدا ، وانتسب إلى حزب سياسى معتدل ، كوشين - سأمان ، حزينا ، قبيحا - يمسح الخوخ لرئيسه :

- دون فرانسسكو ، مقالك الافتتاحى اليوم رائع جدا ، يا له من توتر !! دون فرانسسكو ، هكذا دون فرانسسكو تقضى على المعارضة فى شهر واحد ، دون فرانسسكو فى هذا المساء حفل فى بيتنا ، تستطيع حضوره حضرتك ؟ انظر يا دون فرانسسكو هذا الحفل مقام على شرفك .

- نعم يا رامون ، سأذهب ، لكن لدقائق معدودة ، إنك تعرف ما علىّ .

- نعم دون فرانسسكو ، لابد من التضحية فى سبيل الوطن .

غيرا مجرى الحديث ، ليتكلما عن الثيران .

ذهب دون فرانسسكو إلى الحفل الذى أقامته أسرة رامون على شرفه .

دعت الأم صفوة الصفوة ، سيدات كثيرات ، بعضهن لسن فى المستوى ، وبعضهن فى المستوى طلاءً .

- رامون ، دون فرانسسكو يصعد السلالم .

- حالا أذهب يا أمى .

- أسرع ، فإنه الآن على الباب .

يفتح الباب ، أخذ خادم القبعة ، وعصا دون فرانسسكو ، بينما رامون يساعده فى خلع العباءة .

- شهر مايو هذا . . . ومازال الجو حارا .

- نعم ، دون فرانسسكو ، تأذن لى الآن أن أقدم إليك والدى .

- سعيد يا سيدتى ، سعيد يا سيدى ، عندكم ولد جوهرة ، ابن سوف يصل إلى بعيد ، بعيد جدا .

- مادمت أنت تقوله يا دون فرانسسكو .

احمر وجه رامون من هذه البداية ، ابتسم دون فرانسسكو ، حل الضيف الكبير الموقف ، ودخل مصحوبا بسيدة البيت إلى الصالون .

يتردد فى الصالون همس إعجاب ، ملأ صدر الضيف السياسى زهوا .

شرعت آنسة تعزف إحدى مقطوعات شوبان على البيانو ، فاتجهت إليها التعليقات ، حيث كانت تعزف فى أناقة ، خرج أحد الرجال عن الإجماع بتثاؤب .

سيدة البيت - ملتصقة بالسياسى - أثقلت عليه بكثرة ما تعرضه .

- دون فرانسسكو ، كأسا من الشمبانيا ؟

- شكرا يا سيدتى .

غير السياسى مجرى الحديث .

- من فضلك ، من هذه الآنسة الفاتنة التى تعزف لموزار ؟

تشرح له السيدة فى النهاية :

- إنها ابنة أحد الموظفين لدى زوجى ، يادون فرانسسكو .

عدلت الكلام برقة ، كما لو كان فستان سهرة تجاوزته الموضة :

- مع شوبان ، أناملها فى العزف رائعة جدا ، ألا يبدو لك هذا ؟

قطب السياسى جبينه ، ظهر جادا ، كوشين يقترب من دون فرانسسكو لخدمته .

- كيف الحال ، هل تتسلى ؟

- كثيرا يارامون ، لكن على أن أمضى ، مع أسفى بالتأكيد .

نهض دون فرانسسكو عندما انتهت ابنة الموظف الذى يرأسه أبو رامون من عزف البيانو النشاز ، وعند الباب لبس العباءة والقبعة ، وعصاه فى يده ، يحيى سيدة البيت :

- حفل جميل ، لقد قضيت سهرة ممتعة ، أسعد الله المساء يا سيدتى ، مساء الخير يا سيدتى ، إلى اللقاء ، غدا يا رامون .

كان رامون فى حنق شديد ، اقترب من أمه فى الممر :

- ماذا قلت له يا أمى ، حتى يذهب مبكرا جدا ؟

- لم أقل شيئا يا ولدى .

- لقد قلت له شيئا ، لقد أثقلت عليه .

- لكن ، ماذا تقول يا ولدى ، توسط الأب

- لقد ذهب ، وكنت أنتظر كثيرا من هذا الحفل .

اهدأ ، مرة أخرى نحقق ماتريد .

لمح الحاضرون غياب أصحاب البيت . جاهدت الأم فى التقاط أنفاسها ، دخلت الصالون ، بعد لحظات دخل الأب ، دخل رامون حجرته ، كأنما يدخل إلى حجره ، منكباه مرتخيان ، كأنه يجر نفسه ، فى اشمئزاز هائل .

– سألت آنسة البيانو : أين كوشين ؟

– لقد خرج لشئ ضرورى .

شيئا فشيئا ، بدأ كوشين يصيبه الصلع ، فى البداية بمداخل كبيرة مثل الخلجان ، ثم أتى الزمن بعد ذلك على كل شئ ، فى نوفمبر حين بلغ الأربعين ونيفا مات والده ، بقى مع أمه ، شاب شعرها ، لمع مثل الدرهم ، لم يتزوج كوشين محتقرا للنساء ، كان سكرتيرا فى إحدى الوزارات ، يدور حول ما عزم على الوصول إليه منذ كان طفلا ، غدا رأسه مثل إلية طفل .

كانت أم كوشين تمر على المطبخ :

– سيرافينا ، الحساء فاتر ، أنت تعرفين أن السينوريتو لا يحتمله حارا ، اعتنى بالمحشيات ، تعرفين ، قليلا من الدقيق ، النبيذ بارد ، دون أن يصل إلى التثليج .

– حاضر يا سيدتى .

– آه ، قولى لأوريليا ألا تضع عطرا كثيرا ، وهى تخدم على المائدة ؛ فإنها تستعمل مسكا غير محتمل ، يقطع شهوة السينوريتو عن الطعام .

بعد ذلك تذهب إلى حجرة المعيشة ، تغفو منتظرة وصول ولدها

يعود كوشين متأخرا عادة ، فى سيارة وقور ، يقبل أمه :

– كيف حالك يا أمى ؟

– طيبة ، وأنت يا ولدى ؟

– عمل كثير ، هذا العام مرهق ، حائر من هنا إلى هنالك ، جنازات لا

أعرف أصحابها ، توقيعات ، إننى أمزق نفسى .

يمضيان إلى الغداء ، يجلس أحدهما فى مواجهة الآخر ، جادين ، مطرقين ، تأمر الأم الخادم :

- غيرى الطبق ، هنا لا ، يا أوريليا ، كم مرة أنبهك ؟

- نعم يا سيدتى .

بعد الطعام . يقيل كوشين قليلا ، يخرج فى الخامسة .

فى بعض الأيام يعود للعشاء ، وفى معظمها يعود فى الهزيع الأخير من الليل ، اختارت أمه عدم انتظاره .

ذات يوم وهى تبحث فى أدراج ابنها ، عثرت على مفاجأة سيئة ، كوشين ، ولدها كوشين لديه ثلاث باروكات ، فزعت الأم ، لاتعرف كيف تفكر ، نادت سيرافينا ، انعقد لسان الخادم العجوز ، ثم أفاقت .

- أنا أعتقد أن السينوريتو لايزال شابا ، ويريد أن يزهو بنفسه ، ألا يبدو لك هذا ؟

- ولدى كوشين يزهو بنفسه ، لا يمكن ، هذا أمر أسوأ !!

- لكنه الآن كبير ، يمكنه أن يسهر مع أصحابه على مزاجه .

- يسهر مع أصحابه على مزاجه ؟ أغلقى فم جهنم هذا ، نادى على أوريليا ، هيا نصلى على المسبحة .

- سيدتى ، أوريليا خرجت مع خطيبها .

- إذن اخلعى صدارك ، وتعالى للصلاة .

- سيدتى ، على أن أكوى قمصان السينوريتو ، وإلا غضب

– إذن ، فليغضب ، ماذا أنتظر أكثر من هذا !!

مر الوقت ، حان وقت العشاء ، انتظرت الأم سدى وصول كوشين ، لم تزدرد الأم لقمة ، ألحت عليها سيرافينا .

– كلى يا سيدتى ، وانسى ، يمكن أن تكون للسينوريتو خطيبة .

– خطيبة يا سيرافينا ؟ كوشين ليس له خطيبة سوى أمه ، وأنتهى الأمر ، خطيبة لابنى ؟ أمشى يا سيرافينا ، فإنى على وشك البكاء .

فى الثانية صباحا وصل كوشين ، يحمل وردة ذابلة فى عروة جاكتته ، عيناه عكرتان ، ذاكرته ضعيفة ، باروكته معوجة ، بصورة مضحكة ، يكاد يكون بهلوانا ، كانت الباروكة صفراء منقطة ، يصفر وهو نازل نحو حجرته ، أشعل النور ، ظن أنه يرى مناظر ، أمه تلبس الروب ، تضع فى رأسها أمشاطا ، كانت فى انتظاره جالسة على السرير .

– مساء الخير يا أمى .

للمرة الأولى فى حياتها ، تركت الأم معاملته كولد ، ونداءه كوشين .

– رامون ، أنا لا أفهمك

– لا يا أمى ؟

– ماذا تعنى بقولك : لا يا أمى ؟

كان المشهد شديد التوتر ، أخذ كوشين يخلع المعطف فى بطء ، هوّلت أمه :

– وردة ؟ من أين ؟ ياه ، حمراء ، أحمر شفاه فى العنق ؟

– سأل كوشين : أين ؟

– فى الجانب الأيمن .

مسح كوشين بمنديله ، نظر إليه هازلا ، قال :

– ياه ، كلام صحيح .

– صحيح جدا .

ساد الصمت من جديد ، خلع كوشين فردة حذائه بصعوبة بالغة ، يقاوم بأسف .

– كيف جئت يا رامون ، لو رآك أبوك ، لم أفكر مطلقا أنك تهوى إلى هذا الحد . . . .

– يا أمى ، أعتقد أننى فى سن . . .

– كلكم سواء ، سواء ، كنت أعتقد أن عندى جوهرة ، أنت لا تعرف الألم الذى سببته لى ، فضلا عن الفضيحة التى سببتها ؟

– لا يا أمى .

ردت الأم فى ثقل :

– لا تتصنع التُّبالُه يا رامون لن تجعلنى أعتقد أنك أحمق ، وأنك لا تدرى .

كانت العجوز مخدرة ، مهيبة وهى فى دور القاضى

– والباروكات ؟ لأى شئ تحرزها إذا لم تكن للمجون ؟

– انظرى يا أمى ، إذا كان المرء أصلع مثلى فهو شئ سيئ

– لكنه مهيب ، إن أباك كان أصلع من كثرة التفكير ، من كثرة التفكير فيك ، لاتنس .

– قال رامون : هذا أمر مضحك

– مضحك ؟ لا أفهمك يا رامون ، وأنت ؟ أنت ألم يدركك الصلع من العمل بشرف ؟ والآن كيف جئت ؟ مثل امرأة ضائعة ، أتسمع ؟ بشعر مستعار ، بزيادات تشبع ملاهيك البائسة .

– ليست ملاهى بالمعنى الدقيق يا أمى ، إنها يأس .

– يأس ؟

رفع كوشين نبرته ، أوضح فى شئ من التمثيل المتقن :

– نعم يأس ، لأننى الآن لا مستقبل لى ، لأننى الآن لا أستطيع الوصول إلى أكثر من هذا ، يا أمى ، يا أمى ، كل أحلامى تلاشت ، لن أصل إلى الوزارة أبدا .

لانت الأم .

– كان من اللازم أن تقول لى هذا من قبل .

– نعم يا أمى سامحينى ، لن أصل مطلقا إلى الوزارة .

شعرت الأم بتأثر شديد .

خنع كوشين مومئا فى مكر .

– يا أمى ، أتسامحيننى ؟

– نعم يا رامون .

– يحتاج الرجل أحيانا إلى التلهى .

– نعم يا رامون .

اعترفت الأم بخطأ أسلاف رامون ، ملتمسة العذر لولدها ،

– والدك رحمه الله ، كان أيضا يسهر مع أصحابه على مزاجه أحيانا .

ساعدت الأم ولدها فى خلع حذائه ، ثم ذهبت مزهوة إلى غرفة ولدها ، السكرتير – فى تماجن – نظر إلى المرآة ، خلع الباروكة ، عوج فمه ، كان ممثلا ، ويمكنه أن يقوم بالدور تماما .

أود أن أنام فى سلام

أود أن أنام فى سلام

كان ينام فوق دكة خشبية ، ساقاه مضمومتان ، ساعده الأيسر يدفئ به معدته ، ويتخذ الأيمن وسادة ، مشدودا نحو الأسفلت ، مخدوشا فى أنامل أصابعه الغليظة ، الخشنة ، المنتفخة مثل الكرات و ينام فوق دكة باهتة ، نخرها السوس ، إحدى رجلىْ البنطلون مرفوعة قليلا ، تجعل رؤية لحم الساق الشاحب متاحة ، الزغب كثير ، الجورب بنى ، مجعد ، حزين ، به رقع فى الأسفل ، بألوان ضاربة للزرقة ، تخرج من حذائه الأسود ، كان الرجل النائم فوق الدكة الخشبية يبكى فى النوم ، رقيقا ، ضئيلا ، مثل طفل مريض .

كان الشارع موحشا ، والأشجار المزهرة حديثا ، تفئ ظلالا كثيرة يشطرها ضوء المصابيح فى السماء بقعة ضباب فى طريق سانتياجو ، وومضات النجوم تنقر النوم فى أعين حراس الليل .

تُسمع خطوات وانية لاثنين من الحرس ، حديثهما خافت ، وثمة فأرة فى حفرة تلتهم فى حذر بقية طعام الأطفال .

الحارسان يقطعان الوقت خطوة خطوة ، يتحدثان فى أمورهما الخاصة ، كانا حارسين كهلين ، لهما أولاد كثيرون ، حين ينتهيان من عملهما يعملان عملا آخر فى أى مكان لكى يكملا النفقات ، حَيُّيَا بوابا ليليا يجلس على عتبة الباب .

– مساء الخير ، كيف حالك ؟

- مساء الخير ، بصحة ونوايا حسنة .

- إلى اللقاء .

- إلى اللقاء .

يتابع الحارسان سيرهما ، فتح أحدهما كنانته ، وأخرج منها لوحا من الشيكولاته .

- أتريد ؟

- لا ، إننى أدخن

- إن هذا تصنعه لى زوجتى لئلا أجوع ليلا .

- كنت أقول لك إن أخت زوجتى تعمل فى مصنع ، وهذا يساعدنا كثيرا

اقتربا من الدكة التى ينام فوقها الرجل الذى يبكى وهو نائم

- هلا نجلس قليلا ؟

- حسنا ، لابد أن تكون هنا دكة .

يفتش الحارسان فى الظلال .

- ها هنا دكة .

الضوء الذى ينشره عمود النور القريب يشطر الدكة فى أحد أطرافها ، والرجل النائم فوقها كان فى الجانب المظلم ، تُبيِّضه فى قذارة الساق المكشوفة ، بينما كان الحارسان على خطوات منه .

- من هناك ؟

الحارس صاحب الشيكولاته أظهر عدم الاهتمام عند رؤيته .

- سكران .

الحارس الذى تعمل أخت زوجته فى المصنع ، ومساعدتها له حسنة لم يرتح لانشغال الدكة ، ونسى الرحمة ؛ فمن الممكن أن يكون النائم ابن سبيل .

– ليكن سكران ، أو صاحيا ، فلابد من إيقاظه .

لكن إيقاظه لم يكن لازما ، فقد استيقظ الرجل وحده ، بسط ساقيه نحو الأرض ، جلس ، معه منديل أبيض مصفر ، مقطوع من جهة ، ربما يكون مأخوذا من ملاءة قديمة جدا ، مسح به الدمعة الأخيرة .

– ماذا ؟

– ماذا تصنع هنا ، ألا تعرف أن النوم ممنوع على دكك الشوارع ؟

استغرب الرجل

– نوم ؟ آه ، نعم ، لقد غلبنى النوم ، لكن لى بيتا ، ألا تعرفان ؟ لى بيت ، إننى خرجت لاستنشاق الهواء ، وجلست ، إنكما تعرفان .

انحرف الحارسان إلى الجانب الآخر .

– لا يبدو أنه سكران .

– هذا أسوأ ، لابد من رؤية بطاقته ، قال الحارس صاحب الشيكولاته :

– فلنر ، ألا تتفضل بإظهار بطاقتك ؟

– البطاقة ؟ متعجبا ، البطاقة ؟ تكاد كلماته تخرج حرفا حرفا .

– نعم ، يا رجل ، أليس لديك ورقة تقول من أنت ؟

وقف الرجل ، كان ربعة ، يمكن أن يكون فى الأربعين ، غير حليق الذقن ، شعره مرجل من جهة ، والجهة الأخرى التى استند على ذراعه نحوها

لينام غير مرجلة ، شعره منفوش ، تتوارى الشعرات البيضاء فى عارضه الأسود ، وحين تهب الريح تظهر البيضاء واشية بهرمه ، تجعله يبدو مستهلكا جدا ، مثل المنديل الذى مسح به دمعة النوم ، ألح الحارس صاحب الشيكولاته :

-أليس لديك ورقة تقول : من أنت ؟

أدخل الرجل يديه مسرعا فى جيوب جاكتته ، انتظر الحارسان ، نظر الرجل إلى ثيابه .

- آه . . . لقد لبست هذه الجاكتة القديمة لأظل بها فى البيت ، ألا ترون ؟

ترك الرجل يديه ترتخيان بجانب جسمه .

- لا ، ليس معى هنا أية وثائق .

- أتقيم قريبا من هنا ؟

تردد الرجل .

- نعم ، حسنا ، ليس قريبا جدا ، إننى تمشيت إلى هنا . . .

الحارس الذى نسى الرحمة ، كان فى يده نوتة :

- اسمك ؟

- خوسيه فرناندث لويناجا .

- خوسيه فرناندث لو . . . ؟

غمز الحارس بعينه ، وعوج فمه ، ونص أذنه .

- لويناجا ، لكن يا سيدى إننى أستطيع أن أشرح لك . . .

- حدد إجابتك ، ما تحب أن تقوله قله فى قسم الشرطة .

- ما وظيفتك أو مهنتك ؟

- أنا الآن ماشٍ . . وإن كانت وظيفتي من قبل أسطى لدعم ألواح الخشب ، كنت فى الموانى ، ضعف بصرى ، لم أعد أصلح ، أستخدم نظارة ، تركتها فى البيت .

تابع الحارس أسئلته :

- أين تسكن ؟

- بجانب النهر ، قريبا من الجسر الكبير .

- فى أى شارع ؟

- ليس شارعا بالتحديد

- كيف أنه ليس شارعا ؟

- لا ، إننا نعيش هنالك مجموعة من الأسر . . . .

قطع الحارس صاحب الشيكولاته الأسئلة .

- حسنا ، فلتصحبنا ، ولتشرح كل ذلك للمأمور .

أخذ خوسيه فرناندث لويناجا يرتجف ، توسل ضارعا :

- بالله عليك ، دعنى أمشى ؛ فإن لى ابنا . . .

- حسنا جدا ، لكن عليك أولا أن تصحبنا ، إنه مجرد روتين .

دس خوسيه فرناندث لويناجا يديه فى جيب بنطلونه ، وشرع يمشى ، والحارسان يحيطان به .

شجعه الحارس صاحب الشيكولاته :

- إنه أمر بسيط يا رجل ، عليك أن تثبت شخصيتك ، وكل شئ تمام .

وأضاف صاحبه :

- والآن ، لا يخطر ببالك أية حماقات ، مستغلا الظلمة .

عند المرور على البواب الجالس على عتبة الباب ، قال البواب :

- مساء الخير ، ماذا فعل هذا ؟

- لاندرى ، مساء الخير .

جرت الفأرة فى ممر الجحر ، ضاعت فى ظلال الأشجار ، شرع البواب يلف سيجارة فى تقتير ، مفكرا أن اللصوص حاليا أكثر من ذى قبل ، حينما قدم من قريته فتى ، إلى العاصمة بمشورة عم له ، بحقائبه فى المحطة ، صفقت بعض الأيدى ، ضرب البواب بمقرعته حافة الرصيف ، بعدها أخرج ساعته ، الساعة الرابعة ، ظل يفكر ، يفكر فى أن الذى ينادى لابد أن يكون دون خوسيه الذى يعيش فى رقم ٧ والذى يعود كل ليلة سكران إلى بيته ، ذهب إليه .

نعم ، إنه دون خوسيه فى رقم ٧ ، والذى يعود كل ليلة سكران إلى بيته .

- مساء الخير ، دون خوسيه

تمتم دون خوسيه ، وتبختر فى اشمئزاز :

- ماذا فعل هذا الرجل الذى قبض عليه الحارسان ؟

- لا أدرى ، دون خوسيه ، ربما حاول السرقة .

أشعل البواب نور المدخل ، وبسط يده ، دس فيها دون خوسيه ريالين .

وفى القسم أدلى الحارسان ببياناتهما ، وتركا خوسيه فرناندث لويناجا مع المأمور ، كان المأمور رجلا سمينا ، رفيقا ، ذا ميل شديد إلى حل الكلمات المتقاطعة ، بعد قليل خرج يتبعه الرجل المقبوض عليه .

- اسمع أيها الحارس ، ليجلس هذا حتى السابعة والنصف ، بعدها يصحبه أحدكما إلى بيته ، للتأكد من هويته ، إذ كان كل شئ واضحا تماما فلاشئ ، وإذا لم يكن فليعد مرة أخرى هنا .

جلس خوسيه فرناثدث لويناجا على مقعد أصفر ، شبك ذراعيه ، مال رأسه على صدره ، قدم له الحارس صاحب الشيكولاته علبة سجائره .

- دخنْ يا رجل .

- شكرا ، لا أدخن ، لقد أقلعت عن التدخين .

وفى المكتب ، ظل المأمور يضرب أخماسا لأسداس بحثا عن كلمة تبدأ بحرف «الهاء» وتنتهى بحرف «الهمزة» .

تشكى خوسيه فرناندث لويناجا للحارس :

- إننى رجل شريف ، لم أفعل شيئا سئيا ، لا أدرى لماذا أظل هنا ؟

- اهدأ ، فبعد قليل أصحبك ، وكل شئ تمام .

«كل شئ تمام» هى العبارة المفضلة لدى الحارس .

أخذ يشرح خوسيه فرناندث لويناجا :

- لقد خرجت من بيتى أتمشى ، أتعرف ؟ لدى طفل مريض ، مرضا خطيرا وقد ظللت ليالى طوالا سهران بجانبه ، دون نوم ، بعد ذلك أذهب

للعمل ، أتفهم ؟ لذا بقيت على الدكة ، كنت مجهدا ، وأود أن أنام فى سلام .

فهم الحارس كل شئ .

– لكن يا رجل ، من الذى يخطر بباله أن يخرج من داره دون بطاقة ؟ إن عندنا تعليمات ، والتعليمات هى التعليمات .

مر الوقت ، دقت ساعة القسم الضخمة السابعة والنصف ،

– جاهز ؟

– هيا بنا .

حينما وصلا إلى الجسر الكبير ، تقدم خوسيه فرناندث لويناجا بضع خطى

– إننى أعيش هنا أيها الحارس .

نزلا إلى منحدر ، حيث تنهض أخصاص مبينة من الطوب اللبن Adobes وقطع الصفيح .

– هذا هو بيتى ، تفضل أيها الحارس .

أطل الحارس برأسه ، أمرأتان جالستان على مقعدين صغيرين ، ينظران إلى مائدة خشبية بيضاء ، فوقها يتمدد طفل ، وفى ركن هنالك فوق حشية ثلاثة صبية ، ينظرون بدهشة إلى الحارس الذى مال برأسه

– تقدم يا سيد خوسيه ، لقد وضح الأمر .

أخرج الحارس شيئا من جيبه ودسه فى يد خوسيه

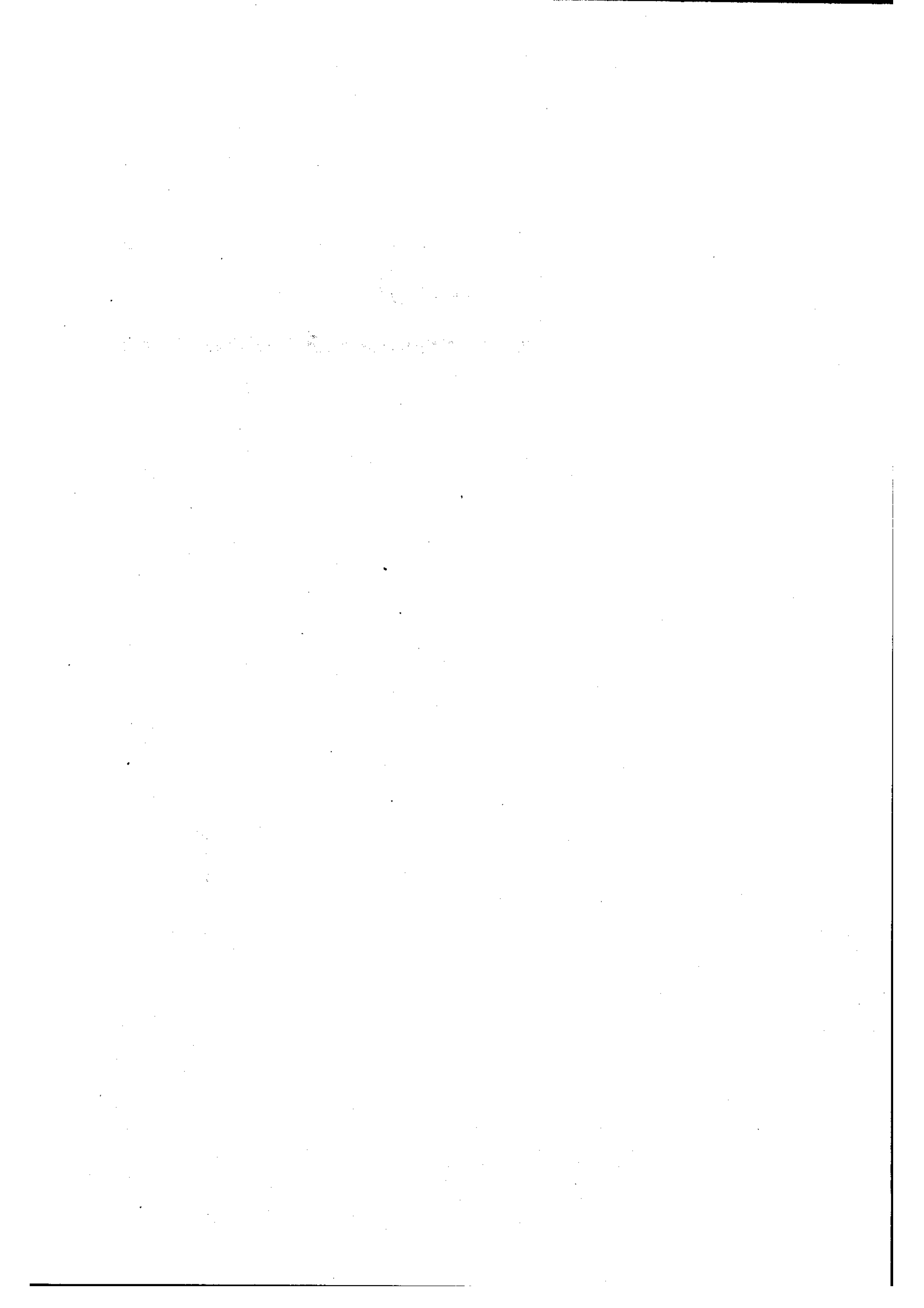
– وداعا خوسيه .

- ماذا ؟

أسرع الحارس ، استقرت في يدى خوسيه المجعدتين القذرتين المرحومتين ورقتان من فئة خمس بيزتات .

كان طفل خوسيه ينام في سلام ، وفى الأصيل حملوه إلى المقابر .

بعد المحطة الأخيرة



بعد المحطة الأخيرة

– لقد وصلنا .

نزلت امرأة حزينة ، تحمل ولدها بين ذراعيها ، رجل حضرى قبل نزوله من الترام ، سأل الكمسرى :

– لو سمحت ، ماذا بقى حتى نصل الى الجسر ؟

قطب الكمسرى حاجبيه ، وقدّر :

– ساعة أو قريبا منها ، مع السير السريع .

قفز الكمسرى الى الطريق ، شد حبل الترام لتغيير الاتجاه ، السائق – رصينا ، بعيدا – نزع ذراع المحرك ، أغمض عينيه ، يداه فى جيبى بنطلونه ، شرع الرجل الحضرى يمشى ، يفكر فى ربع الساعة الذى ينتظره ماشيا فى خطى سريعة ، فى الطريق الترابى ، نظر الى حذائه الأبيض المخطط ، المجعد من الداخل ، المبقع ببقع سوداء رطبة ، أدرك أنه قضى اليوم كله ماشيا .

استعد الترام للسير ، ينزل المنحدر ، ثم يجتاز الجسر ، وفى النهاية يضيع فى المدينة ، الترام يبحث عن ملاذ الشوارع ، ملاذ الزحام يبحث عن حجر البيوت الوادع ، العجلات تصر ، الصندوق المشقوق يتوثب ، يصخب فى اشتداد ، يلتفت الرجل الحضرى ، متخيلا كلبا قرويا هاربا من مطاردة أطفال قاسية ، مربوطا فى صخب ومضايقات مجنونة .

بعد خطوة وثانية وثالثة ، غدا المنظر بالنسبة له مجهولا تماما ،

على اليمين جدار طويل ينتهى بفتحه ، يتيح رؤية حقل حنطة ، بائس ، لا يكاد ينمو ، يظل ظاهرا حتى يظن أنه لا ينتهى ، على الشمال ساقية ACequia ، ورصيف الطريق ، الساقية فى الجانب المحاذى ، وأسلاك شائكة ترسم حدود أرض بور ، أرض بلا صاحب ، بلا شجرة واحدة ، الرجل الحضرى اتخذ هدفا ينعكس بعيدا ، ربما كان قطعة خزف ، عبره دون أن يدرى ، انتهى الجدار ، فاجأته الشمس وهى تغيب ، تجتاز غيمة ضئيلة لها لون النحاس ، فى البداية حمراء قرميدية ، بعد ذلك بنفسجية ، وحين طفت الظلال ارتفع مستوى المنظر ، خلفه المدينة شاحبة فى ضباب للزرقة ، تبدو فيها عمائر عالية سوداء ، زجاج نوافذها يعكس زرقة معدنية ، على الشمال وعلى مسافة من الأرض البور غيوم هائلة تقرب المساء ، تسخنه ببرقها ، فى المواجهة وعلى مسافة أربعة أمتار رأى نبع المدينة الأخير ، رأى تخوم المدينة الحقيقية ، وان كانت كثيرة فى الخلف ، وهو يعبر الحدود ، يجتاز النهر ، ضائعة بين الآلات ، وأعمدة نور الغاز ، تساوق خضرة قمم أشجار الطلح ، خضرة ضاربة للزرقة ، غريبة ، شاحبة ، رأى أيضا منازل واطئة ، صغيرة ، ربما لا تزيد على عشرة ، مبنية من بقايا جدران ومواد منازل هدمتها الحرب ، عند النبع الأخير طفل يملأ دلوا من الماء ، ولكى يتسلى دون ريب يبسط يده فوق الصنبور ، جاعلا الماء يخرج من خلال يده مثل المروحة ، يبلل الأرض وأرصفة الطريق ، نقط الماء تسقط بين ساقيه لعدم مهارته ، تسيل مثل الأنبوب فوق القذارة ، اقترب منه الرجل الحضرى

– اسمع يا ولد ، هل تعرف أين تسكن ... ؟

أخرج الرجل ورقة من جيبه ، نظر فيها

– مرثيدس جوميرا رويث

قال الغلام :

– تعال يا أحول .

اتجه الغلام نحو الرجل باحترام

– لا أدرى ، لكن الأحول يمكن أن يدلنا .

اقترب فتى فى الرابعة عشرة من عمره

– لاتنادنى مرة أخرى : أحول ، ان لى اسما ، تعرف ؟

– حسنا ، أندريس ، ان هذا السنيور يسأل ... اسمع ،تسأل عمن ؟

اتجه الرجل الى أندريس

– تعرف مرثيدس جوميرا رويث ؟

– نعم يا سيدى .

– أين تسكن ؟

– ليست فى البيت ، اذا أردت يمكنك ان تترك معى الرسالة ، وأنا أوصلها لها فيما بعد ،

– انظر ، هى أمور مهمة ...

– حسنا ، اذن هى تسكن فى البيت الثالث ، فى ذلك البيت الذى فى شرفته أزهار ، ليس فيه الا العجوز ، لكن كأن لم يكن فيه أحد .

– شكرا يا بنى .

تقدم الرجل نحو البيت ، عند النبع يتجادل الفتيان

– كيف تناديني أحول أمام السنيور ، أضربك "علقة" لدرجة أن أمك لن تعرفك ، تعجرف الصغير ، وردد ما سمعه كثيرا من الكبار .

– لنترك الأسرة في سلام .. ماذا تفعل أنت ، ماذا تفعل !!

طرق الرجل الباب ، الباب صغير ، باب يدفع الى دهليز غرفة الأشياء المهملة ، لم يجب أحد على الطرق ، ابتعد الرجل خطوات ، استطاع أن يتأمل المنزل بذوقه ، المنزل من طابق واحد ، الواجهة من آجر تالف ، بإفريز من الجص حتى حافة النافذة ، إصيصان من نبات الخيرانيوم ، وفيها علبة زيتون قديمة يسقى بها النبات المتواضع المزهو ، الذى يكون دائما فى نوافذ البيوت المتواضعة المريرة : ظفر قط ، ظفر قط بأزهاره الصفراء وبراعمه الخضراء المشبهة أظافر القط فاتخذت هذا الاسم ، فى الخلف زجاج ، قطعة مكسورة ومغطاة بدقة بورق جريدة ، ستائر بيضاء فيها شقائق النعمان مطرزة بواسطة الماكينة ، الرجل الحضرى رأى وجه العجوز ، وجها مستهلكا ، مجعدا ، مهترئا ، العينان – التى لاحظهما – عميقتان فظيعتان .

أشار له الرجل الحضرى أن يفتح ، تقلص وجه العجوز ،انفتحت فى بطء شطرتا النافذة ، فى العتمة يبدو سرير من حديد ، قديم ، عال ، أبيض ، فوقه مرتبة لها أهداب وعقد ، كان العجوز يجلس على أريكة منجدة بلون أحمر .

– قال : ماذا تريد ؟

– تسكن هنا مرثيدس جوميرا رويث ؟

– ليست هنا ، ماذا تريد ؟

– أحضرت لها هذا .

أخرج الرجل الحضرى ورقة من جيبه ، نهض العجوز نصف نهضة

– معذرة ، فأنا معوق .

ألقى اليه مفتاحا .

– افتح أنت ، الباب الأول فى المدخل هو باب هذه الغرفة .

حاول الرجل الحضرى مع القفل ، والمعوق يساعده بالكلمات

– على الشمال أدر نحو الشمال .

– أخيرا فتح ، شكرا جزيلا .

الممر القصير الذى واجهه الرجل كان معتما ، لكنه مع الضوء المتسرب من الشارع استطاع الرؤية ، على الجدار صور ملونة ، وصور مطبوعة على الحجر ، أغلق الباب ، طرق بعقد أصابعه باب الغرفة .

– يمكن أن أدخل ؟

– أدخل ، أدخل .

– بعد إذنك .

– اجلس هنا .

– انظر يا سيدى ، لقد حضرت لدقائق معدودة ، لإحضار هذه الرسالة من أجل مرثيدس جوميرا رويث ، ان موضوعها قد حل .

– نعم ، انها ابنتى ، يمكن أن تتركها على هذا الصوان ؟

خلف السرير صوان قروى كبير ، مطلى باللون الأسود ، له أدراج طويلة ، مطعمة باللون الذهبى ، يصلح قاعدة لتمثال من الجص ، موضوع فوق مفرش مشغول بالإبرة .

ترك الرجل الحضرى الرسالة ، ألح العجوز :

– اجلس ، اجلس .

– كما تريد ..

– إنها كانت تنتظر هذه الرسالة ، تخرج من عملها الساعة التاسعة ، ستسعد كثيرا حين تعود .

– نعم أتصور هذا ، وأنت هل تفكر أيضا فى الذهاب معها ؟

– ها ، لا ، لا ، سوف أعود الى القرية عند أخى ، دائما أجد سريرا وحساء حتى أموت ، الوطن يشدنى دائما ، فضلا عن أننى لا أمثل إلا عائقا .

تنهد العجوز :

– هنالك فى أمريكا اللاتينية لى ولدان ، يعيشان حياة طيبة ، هذا ما يقولانه .. ..

شعر الرجل الحضرى بالتوتر :

– هل تدخن ؟

– ها ، ... إنه ضار .

– لا بد أن أذهب ، قل لابنتك : لاتتأخر ، وأن تحضر فى الموعد .

– سأقول لها .

- حسنا ، مساء الخير .

- مساء الخير يا سيدى ، أغلق الباب بشدة عند خروجك .

- وداعا،

خرج الرجل الحضرى الى الشارع عند النبع انحنى ليشرب ، واصل السير .

عندما وصل الى محطة الترام كان عليه أن ينتظر قليلا ، الترام يصعد التلة متظالعا ، عندما وقف وثب الكمسرى ليغير ذراعه ، نزلت شابة فى الخامسة والثلاثين تقريبا ، وبسرعة شرعت تمشى الى الأمام فى الطريق ، نظر الرجل الحضرى الى ساعته : التاسعة وخمس وعشرون دقيقة ، توقع أن هذه الشابة لا بد أن تكون مرثيدس جوميرا رويث .

- هيا بنا .

فكر الرجل الحضرى فى زوجته وأولاده الثلاثة ، وفى وظيفته التى لا تدر دخلا كافيا ، نظر الى الخلف ، هنالك خلف المحطة الأخيرة كانت تسير مرثيدس جوميرا رويث نحو بيتها ، تنفس الرجل بعمق ، أخرج من جيبه أربع قطع معدنية من فئة العشرة سنتات .

فى الصباح الباكر

فى الصباح الباكر

لصاحب محل بيع الشمام كلب ، كليب متهور ، يجر إحدى سيقانه فى أسى ، ينام الكلب وصاحبه معا ، ويتغطيان ببطانية عسكرية ، فى خص من القش بين الشمام ، لا يتحدث الرجل مع أحد ، أعتقد أنه لا يتحدث حتى مع زبائنه ، ينهض مبكرا جدا ، يمضمض فمه من عين ماء قريبة ، ثم ينتظر ، ويتمشى ، والبطانية فوق كتفيه ، حتى تفتح أول حانة ، بينما الكلب يتمشى معه ، يشم شيئا ، ويتسلى بآخر .

فى الرصيف المواجه تفتح حانة فى السابعة والنصف ، يعبر الرجل الشارع ويدخل ، ومن المدخل وعبر الزجاج المصقول تثبت عيناه على المحل ، يتناول كأسا من العرق ، وأحيانا كأسين حين يشعر بالبرد الشديد ، وحين يكون غير معتدل المزاج ، يجعل من يده قعبا ، ويصب فيها شيئا مما يشرب ، ويقدمه للكلب الذى يلعقه فى شراهة ؛ فالكلب يفطر أيضا على العرق .

يعرف هذا الرجل فى محلته باسمه فقط ، اسمه روكى ، واسم كلبه «كارتوشو» ، «كارتوشو» مثل كل الكلاب غير العريقة نسبا ، الضاوية ، الجائعة ، المقطوعة ، «كارتوشو» هو الكلب الناحل الشعر كأى متشرد ، وقد نطحه ثور بحد قرنه فتركه أعور تماما ، فى طريق بعيد عن السابلة ، «كارتوشو» هو الكلب الشبح فى محطات السكك الحديدية ، أعياه قذف الحجارة ، يتزاحم على طعامه فى مخازن عربات القطارات المهملة مع

الجرذان ، «كارتوشو» هو كلب القمامة ، ملهاة الأولاد القاسية ، الدائم النباح فى الشتاء ، «كارتوشو» كان الكلب الذى يغرقه فيضان نهر «المنثانارس» تحت الجسر .

لم يكن روكى و«كارتوشو» مجرد كلب وصاحبه ، بل كانا مثل أخوين تقريبا ، يشبه كل منهما الآخر ، روكى قروى ، دميم ، ليس له سن واضحة ، هل هو فى الأربعين أو الخمسين أو أكثر ؟ روكى ذو نظرة كلبية حزينة فى أغلب الأحيان ، ضارية أحيانا ، أحص اللحية طويلها ، هاجمها المشيب ، به زكام كزكام الطيور ، بينما «كارتوشو» له لون الفاكهة العفنة ، عيناه غمصاوان ، بلهاوان ، مذعورتان ، شعره قشتالى من عنقه ، أسنانه فأرية ، يمتزج الذعر والغضب فى فؤاده .

يعد روكى ثلاث وجبات فى اليوم ، واحدة فى الضحى : خبز وطعام بائت ، وثانية فى الثانية أو الثالثة عصرا : خبزا وطعام بائت ، وثالثة فى حوالى التاسعة مساء : خبز ونقطة زيت ، يأكل الكلب مما يأكل منه روكى وفى بعض الأحيان يأكلان شمامة ، ينظفها روكى المرور بحد المدية فى حذر شديد ، يفاجئه «كارتوشو» دائما قاضما إياها لينة ، يُشرب النبيذ من زجاجة البرميل طوال اليوم كحسو الطائر ، إلا أنه محرم على «كارتوشو» .

والآن فى أكتوبر بدأ يتسرب البرد الشيطانى ، انخفضت كمية الشمام ، وغدا حفظه عسيرا ، حينما تعصف الريح يصفر الشمام ، يبدو أنه يصفر لأن الريح تعبث داخله ، وتضيع فى التيه غضبا حتى تُعْتق .

كانوا يعبِّدون الطريق ، ثمة ماكينة هائلة تعد الأسفلت وحراسة نارية مقيمة ، يذهب روكى و «كارتوشو» يقتربان لنفض آلاف قارصة من الصقيع ، تقرص العظام ، يتحدث روكى فى الغسق وفى الصباح الباكر مع الحارس ، أحاديث دون موضوع ، مجرد ثرثرات صبيانية ، ينادى روكى على «كارتوشو» ، ويشرب جرعة من زجاجته ، يقلده الحارس وهو جالس على جذع شجرة ، واضعا زجاجته بين ساقيه .

– يسأل الحارس : كيف حال البيع اليوم ؟

– يجيب روكى : سيئ .

ينشران ملاءة الصمت ، ويطويانها ببطء حتى تحفظ فى الجيب ،

– الجو بارد ، هيه ؟

– نحن فى نوفمبر .

«كارتوشو» ينص أذنه حين عبرت سيارة مسرعة ، أدخنة النار تتقلص بانتقال الهواء ، لكى ترتفع فيما بعد بشدة وقوة وحدة .

فى النهار تشكل الأوراق ساحلا مذهبا فى قنوات الطريق ، تحتها يدور جدول ماء ، يطفو فى بعض الأماكن ، محولا المواضع الضعيفة فى المكان ، وتظل الأشجار طنبا فى ارتجافة الخريف الذى يعريها ، وينزع لحاءها .

– اسمع ، متى تنزع المحل ؟

– غدا

– ماذا يبقى لك ؟

– شئ قليل ، شئ بخس

– هل ستعود إلى بلدك ؟

– لا ، إننى من هذا البلد ، فلأعمل .

– ماذا ستعمل ؟

– فى أى شئ ، ربما حارسا فى أى عمل .

«كارتوشو» يمط وجهه ، يشم حفيف الأوراق التى تغطى ما بقى من عشاء الرجل ، والذى سوف يتناوله فى الصباح الباكر .

– امش يا كلب .

– لن يمسه يا رجل : إنه لا يأكل إلا ما يقدم له .

«كارتوشو» يتسلل بين ساقى صاحبه ، مكشرا عن أنيابه .

يعلق الحارس :

– إن شيطان الكلب قبيح ، ألا يبدو لك هذا ؟

– قبيح ؟ لا أعتقد ذلك .

– لماذا ساقه مكسورة ؟

– بسبب عربة .

الشارع أبيض فى بياض مرآة مطفأة ، الشارع خال ، خلو بركة نظيفة ، لامع بضوء الشمس المتراقصة فى العمق ، الشارع ميت ، إنه الوقت الميت بين عودة خفراء الليل ، وفتح الأبواب .

الحانة تتثاءب ، تنهض ، المنضدة القصديرية تلمع فى خفوت .

– كأسا من العرق .

روكى يصب قليلا منها فى كفه

– اشرب يا «كارتوشو» .

يلعق الكلب ، يحرك ذنبه المجدوع ، ذنبه المقطوع ، وهو صغير ، تلتمع عيناه فى ابتهاج ، يبتسم روكى ، فتبدو أسنانه المتراكبة الدرداء ، مثل بيوت الضواحى ، أسنان فظيعة لحيوان مبارزة ، إذ ليست الأيدى ولا العيون تنم عن الحيوانية والقسوة والجريمة كما تنم عنها الأسنان .

– كأسا أخرى ؟

«كارتوشو» يخمش بساقيه الأماميتين ساق روكى ، يبتسم روكى ، ويعترف للخمار بعدم مبالاته بإظهار هذا الود :

– لا أستطيع الحياة بدونه

يدفع روكى الحساب ، يخرج إلى الشارع ، إنه اليوم الأخير ، يوم البواقى ، لم يعبر الرصيف بعد ، «كارتوشو» يتقصى سر إحدى الشجرات وهو فى الطريق ، روكى سعيد من أعماقه ، منتعش ، إنه سينهى اليوم ، مذاق العرق فى فمه يمنحه نشاطا .

–«كارتوشو»

«كارتوشو» تقفز إلى الشارع ، يُسمع صوت محرك ، يسرع مثل عاصفة فى ضوء بعيد .

«كارتوشو»«كارتوشو» .

يرتاب الكلب ، وإذا بالسيارة فوقه ، روكى انطلق كالسهم إلى الشارع ، انحرفت السيارة لئلا تدوسه ، فمرت فوق «كارتوشو» تابعت

سيرها بعيدا ، مسرعة حتى تلاشت .

«كارتوشو»«كارتوشو» .

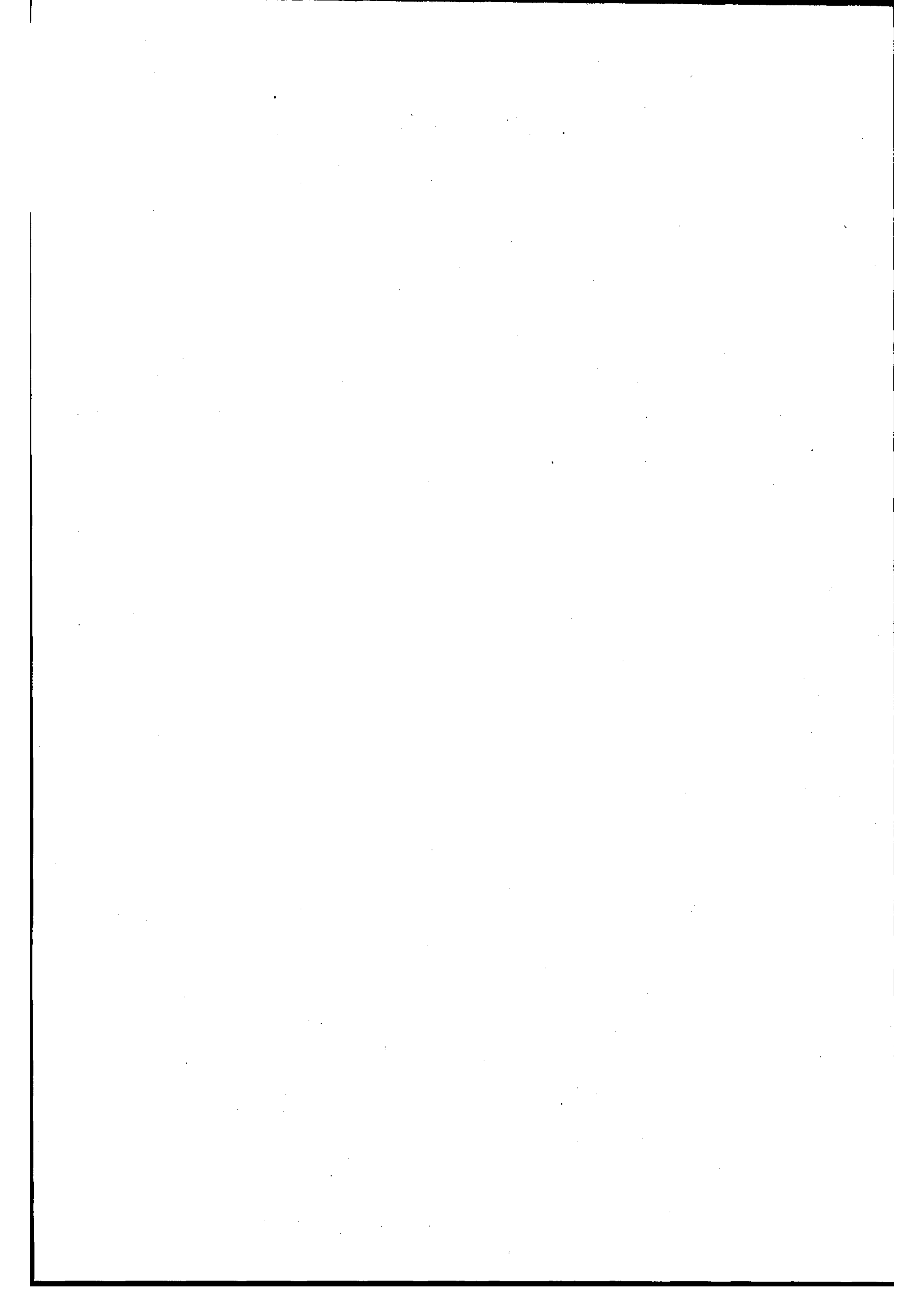
التـقطه روكى مـن الأرض . مـعـانقـا إياه ، نزف عرق من الدم فى حلق الكلب ، جلس روكى على حافة الرصيف .

– سأله الناس : ماذا حدث ؟

لم يجب روكى ، كلمـات العزاء فظيـعة ، تصـفر فى مـتـاهة أسنانه . كأنها قوة من قوى الطبيعة ، كأنها عاصفة إعصار .

قروح روكى ، قروح ، وحدة روكى كانت فى حاجة إلى «كارتوشو» .

طائر العَقْعَق يعبر الطريق



طائر الْعَقْعَق يعبر الطريق*

عندما مروا عليه بقرية النبيذ شرب ، كانت الشمس عالية ، تظل ظلالا نحيلة وعميقة ، فى جزء صغير مهجور ، وظلالا رطبة ونافذة فى جذوع الأشجار الضخمة ، على جانبى الطريق ، كانت الشمس عالية متقاطعة مع السماء الزرقاء ، نحو الجنوب صور جانبية لهضاب برتقالية اللون .

حَمَّض النبيذ فمه ، نظر نحو هضاب أرض ضخمة ، وإلى لمعان المرْو ، أوجعته عيناه ، فى جبهته قطرات عرق ، تحت جفنيه الأسفلين إحساس ببلل مالح ، الأصحاب يدخنون ، دخان السجائر يتلاشى فى الهواء بطيئا ، كما يتلاشى الثلج فى الماء .

عند مس القربة ، بعد ملئها بالفخ ، أحس أنه يلمس بطنا حية ، انشغل الأصحاب بالحديث عن أشياء غير محددة ، بالتمهيد - بأقدامهم فى أحذيتها - لارتفاعات ممر المنحدر الخشن الذى يجلسون عليه ، وبنزع قش من الأماكن القريبة بالأيدى ومضغه ، وبالبصق على تلال الحصباء الساخنة .

شرب مرة أخرى ، ناظرا من فوق خيط النبيذ القرمزى ، نظرة تتسلى ببقعة القربة السوداء ، نحو الأفق الأعمى .

---

* طائر يشبه الغراب يتشاءم منه .

بجانب الأقدام - حين انتهى من الطعام - ترك المخلاة ، ذات القماش المستهلك ، ذات المربعات الوردية والبيضاء ، بها القدر فارغة ، مع فضلة خبز ، عنقود عنب أحمر أكل نصفه ، يصل من قار الغلاَّية نفس محترق ، به كسل ثقيل أن يبتعد ، شاهد عظاية فى حافة الحصباء ، يتمايل رأسها ، أحس بإجهاد شديد حتى إنه لم يجد حماسة لقذفها بحصاة ، أويستطيع رؤية وميضها الأخضر حالة الاختفاء ، كلْبُ الجماعة بعد عنهاليستريح فى ظل العوسج ، مقعيا ، بطنه تلاصق التراب ، تكنسه أحيانا ، بحثا عن قليل من الرطوبة .

لف سيجارته متلذذا بالبطء فى لفها ، أشعل شعلة الجمر الكبيرة ، اقتبس جذوة ، استند بظهره الى الشجرة انزلقت قبعته فوق عينيه ، فكر فى أنه يفصله عن الإبريق خمس خطى ، وليس لديه حماسة لاجتيازها ، فكر فى أنه يروق له أن يغرق رأسه فى طست ماء ، وأن يستشعر الرطوبة فى عينيه وقفاه ، واصل التدخين ، حتى دفعه صوت موتور أن يدير رأسه ، تأمل وصوله ، حتى ظهرت فى جزء يمهدونه فى الطريق سيارة .

- قال بصوت عال : إنه غريب .

وقف ابن كاسيميرو هويرتاس ، علق أهله على عنقه وَدَعاً يمنع الحسد ، وشظيات خشبية ، يلبس قميصا أزرق ، وبنطلونا قديما ، ممزقا ، مرقعا بغير نظام ، لونه بنى نو خطوط بيضاء .

- رفض ابن كاسيميرو هويرتاس قائلا : ليس بغريب ، ليسوا سائحين ، بل أناس أغنياء ياسنيور أنطونيو .

مرت السيارة متمهلة فى الجزء الذى يمهدونه فى الطريق ،عمال الرصف نظروا إليها فى دهشة .

- قال أحدهم يا لها من بنت !!

تلفظ ابن كاسيميرو هويرتاس بشئ بذئ ، ضحك السنيور أنطونيو ، بسط رجليه فى حذائهما الخشبى المغطى بإطار من المطاط .

قص ابن كاسيميرو هويرتاس : فى أعياد « توريثيا » فى أغسطس الماضى ، كانت هناك أجنبيات معهن كاميرات تصوير ، يلبسن بنطلونات ، وقد أثرن الأهالى ، واحدة منهن . . .

أغمض السنيور أنطونيو عينيه ، دخلت السيارة فى وقت الكسل ، وقطعت راحة العمال .

- قال خوستو مورينو الذى يصب القار : هذه هى الحياة ، أن يكون المرء طوال حياته من هنا إلى هناك بهذه السيارة . . . امرؤ لايفكر فى طعام الحمص ، امرؤ يعرف أن يلقى بهمه إلى . . .

عدَّةٌ ابن كاسيميرو هويرتاس تستند إلى شجرة ، خوستو مورينو ، بنطلونه الأزرق ملئ ببقع القار السوداء اللامعة ، المجلدة مثل الجعارين ، غزو من الحشرات يتسلق ساقيه إلى الخصر ، يتضاءل الحجم .

- قال أحدهم : ماكل هذا !! رد آخر : هذه قذارة لاحد لها ، إن المرء هنا أدنى من حجر ، لكى يكون هؤلاء الناس . . .

انتفض كلب الجماعة ، ذيله بين ساقيه ، خبَّ حتى المنحدر ، لايزال السنيور أنطونيو مغمض العينين ، ابن كاسيميرو هويرتاس لايزال ينظر

إلى تخوم الطريق حيث تختفى السيارة ، راسمة نقطة لون على البعد ، ثلاث شجرات فى الأمام ، يصرّ طائر ، يحدث ضوضاء كالمبرد فى الحديد ، الحقل المحصود يمكن أن يقاس بالقراريط من خلال لونه ، أربعة وعشرون فى الأماكن القريبة من الطريق ، ثمانية عشر فى البعد ، أربعة عشر من دورتين من أرنب ، فى البعد ، لم يعد مذهّبا ، بل غدا نحاسا أصفر شاحبا .

– قال السنيور أنطونيو لخوستو مورينو فى توان : اهدأ ، أحيانا لا ندرى من أين تجئ الدراهم ، لابد من الانتظار ، أموال الآخرين حين يكون المرء . . . لا أدرى ، لا أستطيع التفسير . . . إننا أقرب إلى الاشمئزاز لأننا حتى الآن . . .

ابن كاسيميرو هويرتاس ألقى على رأسه ماء من الإبريق ، منحنيا نحو الأرض ، فاتحا دائرة ساقيه .

– قال له بُوِينَا بِينْتُورَا سَانْشِث القيّم على الغلايات : يا غلام ، أفرغ الماء ، استهلك كل ما بقى من الإبريق ؛ ولاتذهب بعد ذلك ، لا تذهب للماء ولا مرة واحدة ، والعاملون فى الغلايات حين يعطشون يسنون أسنانهم ، بينما السنيوريتو يغتسل ويضحك .

يتابع ابن كاسيميرو هويرتاس إفراغ الماء على رأسه ، يتجعد شعره الأسود ، فى الأرض بقعة جميلة من الوحل .

– هذا هو الماء الذى يخصنى ، والذى كنت سأشربه .

– المرة القادمة تذهب أنت ، لن نظل فى الغلاية عطشى ، وتسرح أنت

شعرك .

بوينا بينتورا سانشث ضغط على كلماته بشدة ، اتكأ على المنحدر ، وغمغم :

- انظر ما يفعل هذا . . .

كاسيميرو هويرتاس كان يقرأ جذاذة من جريدة ، وهو جالس على صندوق العدة ، قرأ بصوت عال :

- فى كمين لثوار جزائريين . . . إن هؤلاء عرب ، فى الحادى والعشرين كانوا معنا كل يوم ، المهندسون مضوا هدرا ، لقد ذهبنا ثلاثة مع خمس دواب إلى الجبل الأعلى ، من حسن حظى أن استطعت الوصول ، الحياة التى تساوى . . . .

بقى ربع ساعة على استئناف العمل ، كاسيميرو هويرتاس مر بيده على شفتيه الجافتين . - صرخ : يا ولد ، هات الإبريق .

التفت بوينا بينتورا سانشث دون رغبة ، فمه إلى أسفل ، ناظرا إلى جحر النمل ، إلى العشب الجاف النادر ، إلى العنكبوت الشقراء ، إلى الدويبة التى تتحدث عنها الأم والجدة ، ولا تستطيع العمة العزباء الحديث عنها ، والتى تقطع الأبناء وتتسلل إليهم ، النبأ الذى يقول : إنهم سيكونون جنودا حين يكبرون ، بوينا بينتورا سانشث من تأمله الرهبانى قال :

- لايوجد ماء ؛ لأن السنيوريتو غسل رأسه .

أمر كاسيميرو هويرتاس ابنه :

– تعرف ماذا يجب عمله يا ولد .

بعد ذلك ، ابتعد الابن بالإبريق بحثا عن ينبوع ماء ضبابى آسن من المحجر ، شرع كاسيميرو هويرتاس يحكى عن المشقات التى عاناها فى ثكنات المغرب :

– كانوا يقسمون الماء ، لترا على كل فرد ، حسنا ، لقد وصلوا إلى تقسيمه أثمانا ، أيضا قسموا الماء بالملاعق كأنه الدواء . . . وأحيانا ينتهى الماء ، إذن . . .

وصل ابن كاسيميرو هويرتاس إلى النبع ، كان فيه طحلب ذو وبر ، مثل الجيلاتين ملمسا ، أقصاه فوق حجر المنبع ، حاول ألا يمزق الطحلب بالإبريق خوفا من تلويث الماء ، انتظر .

السنيور أنطونيو ، سيجارته مطفأة بين شفتيه ، السيجارة مثل بقية روث ، أو مثل قشرة مميزة فوق أديم الوجه – قال فى بطء : هنالك بقى أخى ، أحرقه المسلمون* .

– علق كاسيميرو هويرتاس : أناس كثيرون ، كثيرون . . .

ظلوا صامتين .

السنيور أنطونيو زم شفتيه بإبهامه وسبابته ، كوّر يده ، والسيجارة .

– قال : كنت أفكر . . .

حرك كاسيميرو هويرتاس لحيته نحو الأمام منتظرا .

---

* واضح التجنى على المسلمين ، باستعمال الفعل أحرق بدلا من قتل . . المترجم

- كرر السنيور أنطونيو : كنت أفكر فى السيارة التى مرت

كاسيميرو هويرتاس نتف الشعرات البيضاء الطويلة ، بينما كان السنيور أنطونيو نحو التلال .

- قال السنيور أنطونيو فى رقة : ليس هناك حق ، هذه أشياء لا وجه لها ، إحراز مال كثير ذنب .

كان خوستو مورينو يتحدث مع بقية الأصحاب ، كان بوينا بينتورا سانشث ينام فى الجحر ، فى قذارة العشب ، فى العنكبوت ، فى روث الماشية ، دلف بوينا بينتورا سانشث فى أحلامه إلى أرض مروية ، يغرس بستانا فى الأصيل ، يقيل فيه تحت أشجار الفاكهة بعد الغداء ، وخرير المياه فى الأودية مثل خلية النحل .

مــــر كاسيميرو هويرتاس بسبابته اليمنى على حافة أنفه ، كان يفكر .

- قال : كيف نطعم قارا مغليا ، أو ما هو أسوأ منه ، إنها أشياء . . . لا يعرف المرء ماذا يقول ، لكن لابد من أن نقول . . . إنك تفهمنى الآن يا أنطونيو ، إنك تفهمنى .

حرك السنيور أنطونيو رأسه بالموافقة ، ابن كاسيميرو هويرتاس نزل من المنحدر يهز الإبريق ، يصفر ، يمشى مسرورا ، تائها .

- هتف : ماء .

التفت بوينا بينتورا سانشث وراءه .

- تعال هنا .

– حاضر أنا قادم .

بوينا بينتورا سانشث حاول بلا جدوى ،

غرق الحصا ، تناثر حطام الإبريق ، حام فجأة زنبور حول عاصفة الماء السائل ، شرع كاسيميرو هويرتاس يصرخ ، تسمع ضجة سيارة تقترب ، وصلت ، مرت ، السنيور أنطونيو رآها تبتعد ، نظر بعد ذلك إلى المحجر ، حينما كان طائر العقعق واقفا على شجرة عالية شائكة ، طار ، اجتاز الطريق ، قال السنيور أنطونيو :

– لقد انتهى الوقت .

تركت الجماعة ظلال التلة ، إذ مالت شمش النهار ، واصل طائر العقعق طيرانه ، ينقر وسط الحقول .

روايةُ نهرِ المَانْثَانَارِسْ

رواية نهر المَانثَانارس *

من الغرب إلى الجنوب كتل طويلة من السحاب ذى اللون «الكورنتى» الجميل ، من الغرب إلى الشمال زرقة الأصيل الباهتة ، إلى الشرق الواجهات الشاحبة ، فراغات الكهوف ، السواد الفوسفورى لعاصفةٍ وليل زاحف ، الهلال عال ، بعيد مثل شاطئ أبيض .

من الحقول القريبة يتسلل هواء نحيل ، بارد ، حزين ، دخان القاطرات ، دخان حريق أوراق جافة ، دخان الأخصاص المتواضع من الشاطئ الأيمن ، تغشى شفافية الأصيل ، خفافيش تجتاز طائرة مسيل النهر ، صائحة ، خافقة بأجنحتها ، الأيكة طافية ، خضراء ضبابية نهر المانثانارس صاف ، يكدر فى خيط طويل معتم ، لا يكف ، ولا يسكت صوت ثائر لآخر مطعم صغير ، مطعم الخريف ، تئز طائرة فى سماء الغروب الخضراء الضاربة إلى الصفرة ، فوق التلال السوداء من «كاسا كامبو» .

يخرج عمال المدينة من الورش ، من الورش قوة مجهدة من نهر يسيل تضيع فى متاهات المدينة حتى صباح اليوم التالى ، صباح شحيح ، لاذع ، فى الورش .

أعمدة نور غازى ، تحت ضوء معشب لأحد الأعمدة ينتظر شخص

* نهير يعبر مدريد ، ضحل فى غالب أيامه .

ما ، أعمدة النور تشوه حواشى الأصيل ، بعيدا جدا ضوء منعكس دائم من الهلال ، قتامة الأيكة عميقة جدا ، تحت عمود نور الغاز ينتهى الانتظار :

- أهلا يا بيلار .

- أهلا يا مانويل .

- هيا يا بيلار ؟

- هيا يا مانويل .

- نمضى نحو المحطة يا بيلار ؟

- نمضى حيث تريد يا مانويل .

- نشرب كأسا من البرمود يا بيلار ؟

- أنا أشرب قهوة باللبن يا مانويل .

- أنت تشربين قهوة باللبن ، وأنا . . .

- أنت تشرب كأسا من البرمود يا مانويل .

- فى بار «نارثِيا» يا بيلار ؟

- فى بار «كوبيرو» أفضل يا مانويل .

- فى بار «نارثيا» القهوة أفضل يا بيلار .

- وفى بار «كوبيرو» المكسرات أكثر مع البرمود يا مانويل .

- أنت جميلة جدا يا بيلار .

- صحيح يا مانويل ؟

- صحيح يا بيلار .

- هل أعجبك يا مانويل ؟

- نعم يا بيلى .

- ما أجمل هذا يا مانولو ، أنا أحبك .

- كثيرا يا بيلى .

مانويل العامل فى السكة الحديد يشعر بالبرد ، يسأل :

- نمضى يا بيلار ؟

- نمضى يا مانويل .

الخطيبان يروق لهما ترداد اسميهما ، كما أن الرؤساء يروق لهم ترداد القابهم ، ناظر ترام (محطة النُّورْتِى) يأمر صارخا كمسرى ترام (الْكَامْبَا مِنْتُو) :

- جونثالث ، غيِّر ذراع الترام بسرعة . . . جونثالث أعطنى البيان . . . جونثالث ، أنت سامع ؟

- يصرخ سائق ترام (الكامبامنتو) :

- روديرو ، تأخرنا خمس دقائق . . . روديرو ، لابد أن نعوضها . . . ردويرو ، اخرج حالا .

يصرخ حارس الخطوط العجوز :

- مونيوث : لا تنم . . . مونيوث ، هيا بنا ، مونيوث إصحُ خط ٦٠ .

ينزلق الجنود على حديد أحذيتهم وهم يدخلون إلى المترو عجلين ، بائعة الكبريت الشابة تزعق فيهم :

- ولاد أوساخ ، حمير .

بائعة (أبو فروة) القسطل تساندها :

- إنهم متوحشون .

الأعمى يرفع رأسه :

- أوراق اليانصيب .

بائعة الجرائد من كشكها تتأمل الحياة فى سأم ، وتجيب زبونا :

«ماركا» لقد أنتهى .

مرت بيلار ومانويل على بار القهوة ، وعلى البار الذى يقدم مكسرات أكثر ، دخلا فى جدال ، لابد أن يتشاجرا قليلا ، أن يتغاضبا قليلا ، هذا هو الحب .

- لماذا يجب أن تكونى فى منزلك فى الثامنة يا بيلار ؟

- لقد أجبتك ثلاث مرات من قبل يا مانويل .

اتخذ مانويل سمت غجرى ؛ فهذا جزء من اللعبة .

- هذا لا يقنعنى يا بيلار .

تتصنع بيلار الضجر ، تعرف أن عليها فعل هذا

- يالك من رجل يا مانولو ؛

يصمت مانويل قليلا ، تلح بيلار :

- إن أمى قالت لى . . .

- أمك . . .

- إن أمى هى التى تأمر حتى نتزوج

- أمن المعقول ألا نتزوج ؟

تصمت بيلار قليلا ، تبرق عيناها ، يتزيد مانويل :

– هذا الأمر يسير رديئا جدا ، أمن المعقول ألا نتزوج . . .

بيلار لم تنبس شفتاها ، يتابع مانويل :

– إننى ضجر ، لم أعد أتحمل شعرة . . .

تتأمل بيلار عينيها فى المرآة المعلقة خلف المائدة ، مانويل يتجاوز الحد :

– ماذا تقولين لى . . اتركك ، وانسى ، وتنتهى تلك القضية .

بيلار – فى رد فعل – تختال فى كبرياء ، واحترام مترفع

– أنا كذلك متعبة ، حينما تريد نترك الموضوع ، امضى حين تشاء ، لكن للأبد ، لا عودة على الإطلاق ، للأبد ، أتفهم ؟ .

رأى مانويل أن أفضل طريقة لسير الأمور ، ولأن يتصرف كرجل أن يطلب كأسا أخرى من البرموود .

– كأسا أخرى من البرموود

بيلار تدق بكعب حذائها ، تتصنع الشرود ، تتأمل الميدان من خلال النوافذ ، بينما يحاول مانويل أن يبدو ساخرا

– بسرعة فائقة ؟

صوت كعب حذاء بيلار يتصاعد

– أنت تعرف .

– أمك ؟ بحق ؟

تومئ بيلار ، تضغط على شفتيها ، ثم تقول :

– حسنا ، نقوم ، أم تبقى ؟

الوقت ليل ، سحب العاصفة السوداء امتدت إلى الجنوب ، يلبس مانويل سترة من الجلد مفتوحة ، لأنه يحس بدفء البرمود ، تمشى بيلار بجانبه صامتة ، مانويل يصفر :

الوقت ليل ، تتلاشى البروق فى الفضاء ، تغيير أذرعة الترامات تحدث بروقا ، الناظر – شاردا – يتحدث مع حارس مخرج سيارات المحطة ، طابور طويل من الجنود ينتظر ترام (الكامبامنتو) تتحدث بائعة الكبريت الشابة مع جندى يغازلها :

– أصحبك إلى السينما حين تريدين .

زمت بائعة الكبريت شفتيها

– للسينما أنا هنا !!

– ما تقولينه يا حلوة .

– لكن يا طفل ، أتظن أننى أذهب إلى السينما مع طفل مثلك ، مع السلامة . . . الجندى تحير للحظة ، إلا أنه أفاق حالا :

– بنت ، أنا عارفك .

– أنت ؟ تعرفنى أنا ؟ مع السلامة .

أحد أصحاب الجندى المغازل يصرخ فيه وهو فى الصف الطويل المنتظر الترام .

– لويس ، هيا ، والا أضعت دورك .

الجندى لويس يشمخ مودعا :

- غدا ، أحضر للبحث عنك يا حلوة .

- فليبرنوك .

- سأصحبك إلى السينما أو إلى حيث تريدين .

- أنت معك نقود لتذهب بى إلى حيث أريد . .

- إلى اللقاء غدا يا حلوة .

الجندى لويس يسرع نحو الترام ، تلتفت بائعة الكبريت الشابة إلى زبون :

- بيزتة ، تكملة خمس بيزتات .

- أعطنى خمسة .

الوقت ليل ، قبل الوصول إلى ميدان سان أنطوينو ، مانويل يشترى (فول سودانى) من محل شعبى يبيع أيضا فاكهة ، وبطاطس محمرة ، وخيارا مخللا فى الخل ، وأربطة أحذية ، شئ جميل أن تكون داخل محل شعبى تتحدث مع الخطيبة ، الأقدام بجوار المدفأة ، وتناول الفول السودانى .

- أتريدين يا بيلى ؟

مانويل يستسلم شيئا فشيئا ، بيلار لم ترد .

- هيا يا بيلى ، لقد اشتريته من أجلك ؛ لأننى أعرف أنك تحبينه .

لقد أثرت كأسا البرمود فى مانويل .

- هيا لا تكونى حمقاء ، يا بيلى ، كلى واحدة ، حبة واحدة ؛ لكى أعرف أنك لست غاضبة .

يأخذها مانويل من ذراعها ، بيلار تمشى متبردة ، جادة

- بيلار ، أنا أحبك .

تسود لحظة صمت

- هيا يا بيلى ، أطلب منك السماح ، أتسامحينني ؟

تقبل بيلار .

- لم يحدث شئ لكى أسامحك يا مانويل .

- صحيح يا بيلى ، لابد أن تسامحينى ، سامحتنى ؟

- لقد سامحتك يا مانويل .

بيلار تبحث عن يد مانويل ، تضغط عليها بشدة .

- إنك يا مانولو . . . انظر كيف يروق لك أن تعذبنى . . .

- لقد نُسى كل شئ ، صحيح يا بيلى ؟

- صحيح ، نسى كل شئ يا مانولو ، لكنك . . .

- تريدين حبة من الفول السودانى يا بيلى ؟

- نعم يا مانولو .

- أقشره لك يا بيلى ؟

- كما تريد يا مانولو .

- إذن اتركى يدى يابيلى

- مانويل يضع الفول فى فمها

- تريدين أكثر ؟

- لا يامانولو ، لقد شبعت .

خلال الممر على شاطئ النهر ، تشكل ظلال الأشجار نفقا ، فى مياه المانثانارس يبحر الهلال الفوسفورى مترددا وعميقا ، ومن بعيد تيار عال ، ينبح كلب .

- أتغرقين معى يا بيلى ؟

- لا يهمنى ما دمنا معا ، أغرق معك .

- بيلى . . .

يتوقف مانويل لحظة

- بيلى ، أتتحدثين قريبا عن موضوعنا

- نعم يا مانولو .

- نتزوج قبل عيد الميلاد

- ما تريده يا مانولو .

الكلب يواصل نباح الهلال ، والظلام ، والحب ، اتسعت السحب من الجنوب إلى الغرب .

- هيا بنا من الظلام يا مانولو .

خرير النهر يخفت

- هيا بنا من الظلام يا مانولو .

- بيلى .

- هيا بنا يا مانولو .

- هيا بنا .

الوقت ليل ، تيار عال ، الكلب كف عن النباح ، الهلال يسبح فى سماء صافية خلف الغيوم ، مياه المانثانارس غدت سوداء .

ولــو لــم يــر الشمس

ولو لم يرو الشمس

تعود عند الخروج من بيته أن يداعب الجيتار ، تمر أصابعه الغليظة على أوتاره ، فيقول : وداعا ، الجيتار معلق على مسمار بالباب ، حين يعود من الشارع فى حوالى الحادية عشرة مساء يأخذ الجيتار ، وقبل العشاء يجلس إليه ، ويسنده إلى بطنه وقتا طويلاً ، دون أن يستطيع العزف ؛ خوفا من أن يسمع صياح تيريسا ، يستر الجيتار بين ساقيه خلال العشاء وبعده حينما يتحدثان عما باعاه ، وعما بقى دون بيع ، وعن الجو ، وعن السكارى ، ملمسه الدقيق يبحث عن متعته ، يعرف الآلة كما يعرف يديه ، يعرف أين تعمل الأظافر فى أماكنها ، وكيف تلمع الأكف الخشب حتى تدعه مصقولا ، ومرهفا ، ربما مثل الشفاه ، يعرف أين الاتجاه المهدد لمواصلة التصدع فى الخشب .

إذا كانت تيريسا سكرى أو نائمة ، فإنه يمكنه تذكر السنوات التى قضاها عازفا فى الشوارع ، يتذكر سيره البطئ بالقرب من ميدان السوق ، سيره الصباحى مستنشقا عبق البحر الغامض وأريج البستان والدم ، سامعا أصوات البائعات الخشنة ، وضجيج عربات الكارو ، تدهس الأرض مزعجة ، يتذكر طائفا كأنه العبور فى شارع مايور ، يتذكر السير المسائى ، يشم فى الزمن الجميل دخان السيجار ، يسمع صفير ماكينات القهوة الهادئ ، يتذكر صحبه الساهرين فى الحانات ، الذين يدعونه ، وينكتون عليه ، طالبين منه أن يغنى لهم موشحات ماجنة ، إذا كانت

تيريسا سكرى ونائمة . . . .

كان شيئا ينتمى إلى شوارع المدينة ، صورته الكاريكاتورية نشرت مرارا فى مجلات المناسبات فى تلك السنوات ، ولهذا كان يود رؤيتها ، كان يحتفظ بصوره الكاريكاتورية - والآن لا يدرى أين هى ؛ لأن تيريسا رتبت كل الأشياء على طريقتها - لكى يقدمها إذا سنحت له سانحة يوما ما .

تيريسا تمقت الجيتار والفقر ، رغم أنها كانت دائما فقيرة ، بدأت تيريسا حياتها بصورة سيئة ، وسوءها أخذ فى الازدياد ، بينما تتحدث هى عن تلك السنوات باعتبارها أفضل سنوات العمر ، والآن هى زوجته ، يصحبها بسرعة فى الشوارع ، يدفعها إلى العمل بالقطعة ؛ لأنه قبل العمل الجديد ، وعليه أن يبيع نصيبه من الأرقام ، ولا يروق له الوقوف عند النواصى .

لايتشاجران كل السبوت ، فقط فى سبت واحد ذهبا إلى شرطة النجدة حين أرادت تيريسا تحطيم الجيتار ، تعلقت بيديه ، ورمته بقدر ماء مغلى ، فى ذلك السبت البغيض تشقق خشب الجتيار .

- حذره أهل المدينة : تيريسا فاجرة (فى غرزة) ، لاتتزوجها .

إلا أنه تزوجها ، سعد بهذا الزواج ، لايهمه أن يقولوا له فى الحانات كلاما بذيئا عنها ، لكنه يتذكر يوما ما بوضوح ، حين يفكر فيه يغص به ، يوم صيف ، قذف أحد السكارى تيريسا ، وبما أنها كانت سكرى قذفته بكوب فى وجهه ، لكمها السكير ، فصرخت تيريسا :

- لو كنت متزوجة رجلا ، لماجرؤت يا ابن الـ . . .

يتذكر هذا اليوم جيدا ؛ لأنه جاء مثل المجنون ، ولم يستطع أربعة رجال منعه ، إلا بعد أن سدد أحدهم ضربة بشئ صخرى إلى رأسه ، بكت تيريسا فى ذلك اليوم ، ولم تعد للبكاء مرة أخرى قط ، قادها إلى المنزل ضاغطا على ذراعها بشدة ، وقبلها فى يديها وعينيها .

ذات يوم قررت تيريسا أن يلبس نظارة سوداء ورباط عنق .

- قالت : هذه العيون مخيفة .

لم يفهم هذا ؛ لأن عينيه كانتا معروفتين فى كل أنحاء المدينة .

- قال : على أن ألبس رباط عنق لدخول المقاهى .

وبما أنه لم يدخل قهوة قط ، ترك تيريسا تضع له رباط عنق ، فى الأيام الأولى سمع الناس يضحكون ، فاعتذر :

- إنها أشياء زوجتى ، النساء معروفات . . . .

لقد ألف زوجته ، كما ألف الجيتار .

- تيريسا ، قربينى من البيوت .

- إذا قربتك ، فإننى أنا التى أبتل .

- تيريسا ، بقى لنا اليوم ثلاث وأربعون بيزتة ، ينقصنا خمس ، أين هى ؟

- هل لا أستطيع تناول كأسين من البرمود حين أريد ؟

- تيريسا ، لا تضعينى فى مأزق .

- لن نبيع فى الصحراء ، احتمل .

- تيريسا ، إن المـاء يتسلل مـن الحذاء إلى قدمي ، خذى الحذاء لإصلاحه .

- لا مال لدى ، انتظر حتى تتمكن من لبس البلغة ، ثمة أناس كثيرون فى العالم يمشون حفاة .

أحيانا يضحك ، أويسبها ، لم تدعه قط يداعبها ، لكنه على كل حال ليس وحيدا .

- لما تساوين عندى . . .

من المحتمل أن تيريسا على صواب ، لأنه لم يساو كثيرا قط ، يعرف جيدا أن أى رجل يمكنه أن يعرف قيمته القليلة ، وقد صرخ الناس بذلك ألف مرة :

- تسير مثل ضفدع . . . لابد أن أمك لكمتك لكى تخرج بأنف له لون النبيذ . . . لو زدت مترا لاستطعت أن تلائم تكنة الحرس . . .

كان كما تعتقد فيه الناس ، ليس إلا ، لم تستطع الناس أن تكون قاسية ولا كريمة ، كان أشبه بالمستحيل أن تطلب له حنانا أكثر من السنتات التى يأخذها ، يقضى السنوات دون عمل غير عزف الجيتار ، أو المال الذى يأخذه نظير انتظار حظ حسن ضئيل ، لم يكن فى حاجة أيضا إلى حنان ، لأن لديه تيريسا ملكه ، يمكنه أن يجادلها ، أو يضربها دون تدخل من الناس ، تسمعه أصوات الاعتراض ، يحبها أو يبغضها ، دون شاهد حقيقى أكثر من حيطان المنزل .

تحب تيريسا الذهاب إلـى السينما ، انتظرها ليالى كثيرة فى

المنزل ، حتى قرر أن يصحبها ، اكتشف شيئا رائعا ، فكر فى أنه يمكن أن يكون أشد حزنا لو ولد أصم ، واستمتع بميزة أنه لم يولد هكذا .

– قالت تيريسا : لو تستطيع أن تراها . . .

لم يهتم بها ، يمكنه تمييز شارع ملئ بالضجيج ، والجياد تسير خببا فى الشارع ، عالم كله يغلى ، فحصه حتى الأعماق .

غابت تيريسا عن البيت خمسة عشر يوما ، عانقها حين عادت ، أراد أن يداعب شعرها .

– لاتفعل حماقات .

– هل عاملوك معاملة سيئة ؟

– كيف يعاملوننى معاملة سيئة ؟

– هل شعرت بالبرد ؟

– لا ، بل بالحرارة ، ماذا تقول !!

– هل قدموا لك طعاما جيدا ؟

– كان ينبغى أن تستاء أن أحمل شيئا .

– لم يتركونى .

أنحى باللائمة على الناس ، كان يمكنه أن يدفع مع الوقت ، لا أحد له الحق فى ينزع منى تيريسا ، لا أحد ، فكر للمرة الأولى أن الناس غلاظ .

دخلت تيريسا الفراش ، لم تنهض طوال يومين ، بعد ذلك ذهبا إلى السينما ، سكرت تيريسا فى الليلة التالية ، تضاربا .

- اتهم الناس : إنهم سارقون .

بالرغم من أن تيريسا لم يهمها الأمر ، إلا أنه لم يرد أن يعود إلى البيع فى الميدان ، أهان بعض السكارى حين دخلوا ، سمعهم يقولون مقهقهين : - حذار ، - سيرا مورينا - أمسك المحفظة .

لم يحدث شئ فى الرابع والعشرين من أكتوبر ، لكن السبت حزين منذ الصباح ، كان ممطرا ، حين ودع الجيتار ، كانت كلمة الوداع خافتة .

خرجا إلى الشارع ، بدأ العمل ، فى الليلة الماضية باعا قليلا .

- قالت تيريسا : هيا نشرب قهوة فى بار جيتارتى .

دخلا البار ، شربا قهوة باللبن ، زادت تيريسا كأسين من العرق ، حيث كانت تشعر بالبرد فى عظامها ، وبألم فى الظهر كالحريق .

- قالت تيريسا : هنا .

- هذا المساء أستطيع أن أدلك إذا اشترينا كحولا .

- قال جيتارتى ضاحكا : الكحول صالح للداخل .

بعد ذلك دخل أناس من السوق ، دعوا تيريسا إلى كأس أخرى ، شرعت تيريسا تتحدث كلمات بذيئة ، أهاجت الجميع ، لدرجة أن جيتارتى أمرهما بالخروج .

- سألت تيريسا : ألا ندفع كما يدفع الآخرون ؟

- نعم ، نعم ، لكن اخرجا .

- لماذا نخرج ؟

– قال هو : هيا يا تيريسا .

غضبت تيريسا ، جذبها بسرعة إلى الشارع ، عبر بها تحت مطر غزير .

– لقد طردوك مثل الكلب ، ولم تعترض .

– كلا ، لم يطردونا .

– ماذا حدث إذن ؟

– كنت تقولين كلاما غريبا ، ليس هذا أوانه ، فضلا عن أنك شربت بجوار القهوة باللبن عرقا فوق اللازم .

– ماذا ؟ إنني مريضة .

– إن الوقت مبكر لمثل هذا الشراب الكثير .

– وماذا ؟ هل يهم أحد ما أشربه ، أو ما أترك شربه ؟

– أنا .

– أنت ؟

ضحكت تيريسا بجنون ضحكتها المعهودة ، وكانت بدأت تصفر من بين أسنانها المكسورة . وانتهت بحشرجة مؤلمة .

لم يكن فى ذلك اليوم شئ طيب ، فى الثانية عشرة انقطع المطر لحظات ، عـاد مرة أخرى بغزارة شديدة ، شعر ببلل قدميه ، القلنسوة مبللة ، لكنه لم يشك ولا مرة واحدة ، على حين تركته تيريسا على أبواب البارات والحانات لتدخل تبيع .

فى الساعة الواحدة تغديا شطيرة مورتا تاديللا فى إحدى

الحانات ، تحدثت ثيريسا مع الخمار أكثر من اللازم ، ، ثم دندنت وقالت :

– خسارة الا يكون معك الجيتار الآن ، كان يمكننا أن نلهو .

في الرابعة والنصف اشتعلت أعمدة النور العامة .

– قالت تيريسا : المجلس البلدى يريد أن يرفع الضرائب .

في السادسة والنصف سكرت تيريسا تماما ، تلكمه ، تقرصه في ذراعه ، قررت أن يشرب معها أيضا ، دخلا الحانات ، وإن لم يبيعا شيئا ، طلبا كئوس نبيذ ، تحدثا مع الناس .

– حذار يا تيريسا .

لكن تيريسا لم تبال بتحذيراته ، يتعثران ، يوغلان في المستنقعات .

للوصول إلى البيت – خارج المدينة ، عليهما أن يجتازا خطوط سكة حديد «النورتى» ، ويهبطان إذا أرادا اختصار الطريق منحدرا شديدا ، بعد ذلك يسيران أكثر من مائتى متر على شاطئ مصرف مغطى ، تصب مياهه في النهر القريب .

– تيريسا ، تيريسا ، صرخ مرارا بلا جدوى .

تزحلقت ، سقطت ، طلب نجدة ، نادى مرارا تيريسا ، دون جدوى ، ما بين المطر والظلام دون جدوى .

ظلت في المستشفى أسبوعين ، هنالك فكر في اختيار ناصية ، اختار ناصية رديئة ، لأنه لم يعد في حاجة إلى ربح أكثر ، والأمر سواء بالنسبة إليه ، أمحت من نواكر الناس برفق ، يحدث هذا أحيانا في نهاية

الصيف .

قال الناس : لقد تحررت بضربة حظ حسن ، شئ طيب أن حدث الأمر هكذا .

لكن الوحدة لاتعوضه أبدا ، يعرف ذلك جيدا أفضل من أى رجل آخر يمكنه أن يعرف ، فى بيته يداعب أشياء ليست هى ، لكنها تصاحبه قليلا ، قليلا فقط ، مثل عينيها .

فتاة الميدان

فتاة الميدان

الميدان فى مساء المدينة الصيفى الساجى ، صاحب ضوء مخضر ، علامات «النيون» فى الشوارع الكبيرة ، تشكيل أعمدة نور الشوارع الصغيرة تتقاطع فى خطوط ، وتحفر الظلمة ، الميدان مفصص بواجهات المنازل العالية الشاحبة فى عمومها ، تقطر ظلالا ، تنشر لمعانا منطفئا ، بعيدا عن ليل المدينة .

فى الميدان «لمبات» التاكسيات فى المحطة ، بريق أعمدة نور الغاز فوق أوراق شجر الطلح عشب الحديقة – الزمردية المروية حديثا – حول تمثال الليمون – أربع لمبات عاكسة صغيرة تضيئه – تخضر ظلمة دائرة الميدان غير المكتملة ، شرفة المقهى خالية ، السماء صافية ، قارّية ، تسقط فوق الميدان أحيانا تعبر سيارة تجر أذيالها ريحا متسرعة ، كانت الساعة فوق الثانية بعد منتصف الليل ، خفير الأبواب يهيئ مخفرته بين الشرفة والناصية حاملا كرسيا من القهوة ، بائعة الكبريت تغفو فى جانب المدينة المشلولة ، سائقو التاكسيات تعبوا من الحديث فيما بينهم ، ينتظرون فى كلل ملول بجانب سياراتهم ، عابران يبحثان عن النوم يدوران فى الميدان ، همس ، وكسل ، وظلال .

الماء يغلى فى الإناء المعدنى ، النادل يغسل جهاز صنع القهوة بفوطة شمواه ، يطلق السيفون ، يجتهد فى تلميع جهاز صنع القهوة ، صاحب القهوة يجرد الخزينة ، نادلا الفترة الأخيرة يعدان أرقام

الاستهلاك ، وهما جالسان إلى مائدة .

– قالت الفتاة : فنجان قهوة يا ولد .

– فى الحال .

– الكعك الذى عندك من الصباح ، أو من العصر ؟

– من الصباح .

– ألا تحضرون كعك العصر ؟

– لم نحضره قط .

– هيا بسرعة .

أخرجت الفتاة من حقيبتها البلاستيكية الكبيرة علبة سجائر .

– أشعل لى يا ولد .

النادل ترك علبة الكبريت فوق المائدة ، وواصل تنظيف جهاز صنع القهوة ، ثم أعد القهوة .

– ضع قالبا آخر من السكر ، فالقهوة رديئة .

– مرة ؟

– سريس .

– طعم الأنيس . . .

– أنيس ، أنا . . . ؟ – زمت شفتيها فى إصرار – أنا ، أنا لا أشرب . . . متى أنا ! أرأيتنى أشرب ؟ لابد أن تتغير أشياء كثيرة لكى أشرب خمورا . . .

– أمر صاحب القهوة : هيا نغلق .

– فى عيد رأس السنة الماضى ، رجل أهدانى أنا وباكيتا بعض الزجاجات . . . لا أقول ذلك لأعنى أننى جربت الشراب . . . الشراب لا . . . باكيتا أخذت الزجاجات هى وخطيبها . . . أنا . . . ولا الطعام ، انظر . . . أقل من أكل القط . . . وإن كان هذا صحيحا ، لا أعدم شيئا أبدا طعاما للغذاء ، وشيئا من لحم الخنزير للعشاء . . . وإن كان الأمر سواء بالنسبة لى : قليل من السلطة ، أو حساء أندلسى يكفى . . . الذى أحتاجه – تؤكد على كلماتها – مال يا ولد ، مال لابنتى ولى ، وليغرق العالم ، أو لتسقط عليه قنبلة من تلك النشوات نفسها . . . بالنسبة لى . . . كثير من هذا . . .

– ثلاث بيزتات ونصف من خمس بيزتات ، قالها النادل وهو يصوّت بالعملة لتسمع الفتاة .

خرجت الفتاة من القهوة تؤرجح الحقيبة ، رمت السيجارة ، سائق تاكسى تلفظ بألفاظ نابية ، أومأت الفتاة بحركة من كتفها ، وأضافت فى صوت خفيض :

– أمك يا حلو .

حين مرت على خفير الأبواب حيته :

– أهلا يا بيثنتى .

– قال الحارس فى جفوة : كيف !!

– لا شىء يا أخى ، هذه مقبرة .

– إلى النوم

- هذا هو المطلوب .

- الصيف .

- الرغبات .

أظلمت القهوة . واصلت الفتاة سيرها ، أصلحت بيدها اليسرى القميص والإزار ، فى رقة دندنت بأغنية .

- قالت لبائعة الكبريت : لقد حان الوقت يا جدتى

- أهلا يا أنخليتا .

- أنت نائمة . . . هنا لا شىء يعمُل ، اذهبى إلى الفراش .

- هذا ما يجب .

- أعطينى علبة سجائر ، وعلبة كبريت

- عندى سجائر بفلتر

- لا .

- لقد سألت أمس .

- أنها غالية جدا ، فمتى ترخص !!

- ترخص ! نعم ، نعم . . .

- لا أدرى أين يمكن أن يوجد ما هو أسوأ ، هل فى الفراش ، أو فى الشارع ؟ لأننى اليوم فى غرفتى . . .

- إذن فى بيتى . . فرن !! البيوت القديمة معروفة فى الصيف ، أنا حتى يجىء الصباح لا أتحرك من هنا ، بعد ذلك مع البرودة أذهب إلى البيت وأنام حتى الظهر مثل الدبة .

- متى تدفعين الأجرة ؟ للمسكن ؟ .

- لغرفتى ؟ ، يا ابنتى ، إننى أعيش فيها من أيـــام الحرب ، أقول لك هذا . . . الشىء السيىء فيها أنها بعيدة من هنا ، لكن من الذى يغيّر ؟ قبل ذلك كان كل شىء سهلا ، تغيرين متى تريدين . . . كان زمانا آخر .

- إذا كنتم جئتم للحياة وهى مليئة يا ابنتى . . .

- فى قريتى - انظرى - كيف يسير كل شىء ، بيوت زيادة أومأت الفتاة بحركة صارمة : هذا لا يكون للعدو الأسوأ ، إننى أقول لك هذا ، لا يكون للعدو الأسوأ ، . . . وليحدث ما يحدث . . .

- للفقراء ، لم يبق لنا شىء إلا أن نشحذهم . . .

- هنا نأكل على الأقل

- الذى يأكل . . . .

- حسنا يا جدتى ، لا بد من الزيادة ، لكن نأكل . . .

- إذا كانت الواحدة شابة . . .

اقتربت سيارة من حافة الرصيف ببطء

- أنت يا عُجَر . . . !! قالوها على طريقة الفلامنكو .

أدارت فتاة الميدان رأسها ، أومأت بحركة ، ثم قالت لبائعة الكبريت بصوت خفيض :

- يبدو أن الحظ ابتسم

- لا تثقى ، أعتقد أنهم كانوا يشربون

- سوف نرى ، يبدو أن الحظ ابتسم .

- أوصت بائعة الكبريت : حذار يا أنخليتا .

فى تصنع وبلا مبالاة ، اقتربت فتاة الميدان ، تؤرجح الحقيبة ، من سائق السيارة(سيات ٦٠٠)

- قالوا لها : هيا يا حلوة ، اركبى

- أنا ؟ ما هذا !! ؟

كانت بائعة الكبريت ترتب بضاعتها اليسيرة ، حينما كانت تنظر ألى أنخليتا التى تدق بكعب حذائها الأيمن ، فى عصبية دقات تصحب كلماتها بصوت خفيض ، بعد ذلك سمعت ضحكة ، ركبت الفتاة السيارة ، الميدان خلال لحظات صار مثل صالة كبيرة خالية .

" ابتسم الحظ" فكرت بائعة الكبريت ، وتنهدت .

حكاية بابا نويل

حكاية بابا نويل

عين الأسود هدف آلة التصوير ، جوع الأسود عقرب سوداء أرجلها الخلفية مبتورة ، الأسود أو ميكرون رودريجيث يصفر فى الشارع ، يصعر خده من أجل تصوير رجل وامرأة ، يشعر بألم شديد فى المعدة ، مرت عليه سبع وعشرون ساعة دون طعام ، واثنتا عشرة ساعة وثلاثة أرباع الساعة - دون أن يحسب الليل - من غير أن يصور ، يقضى معظم ساعات حياته يصفر .

كان يعيش أوميكرون فى المرية ، صعد مع حر الصيف الشديد الماضى إلى مدريد ، صعد مع الترمومتر ، يتناول أوميكرون حين يتيسر معه نقود قهوة ثقيلة باللبن فى بارات بويرتادل سول ، وكئوسا من الأنيس ، موزعة على أكواب متوسطة ، ممزوجة بالماء فى حانات بابيكاس ، حيث يعرفه الجميع هناك . ينام - ضيفا - فى منزل صغير فى بابيكاس ! لأن المساء فى بابيكاس يصل مبكرا ، وفى الصباح الباكر حين تشرق الشمس يتسلل شعاع ضئيل من نافذته ، يقفز ويتوغل حتى فراشه ، حتى وسادته ، يخرج أوميكرون يده من تحت الملاءات ، يدفنها فى شعاع الشمس ، بجانب أنفه الذى يشبه أنف ملاكم مبتدىء ، أفطس ، إلا أنه غير مشوه تماما .

لا يملك أوميكرون معطفا من الصوف أو الجبردين ، ليس لديه سوى بدلة فاتحة ، وكوفية خضراء تشبه عظاية ، يلف بها عنقه ، حين يكون

نظيف الجسم ، يرتعد فى الشوارع من البرد ، فى الحادية عشرة صباحا ، ينتفش مثل ذبابة هائلة ، فى الصيف حيث تمر الشمس ، لأنها تمر فى جهة واحدة فقط ، تدفىء الذين لا يملكون معطفا من الصوف أو الجبردين ، ولا يمكنهم أن يظلوا فى البيوت حيث لا تدفئة ، ويعيشون من بيع الصحف ، والسجائر الصفراء واليانصيب ، وخيوط النايلون تصلح للعقود ، ولعب بلاستيكية ، وتصوير الأجانب .

يتحدث أوميكرون على طريقة أهل الأندلس ، هو قبيح ، قبيح جدا ، شديد القبح ، يكاد يكون مقززا ، وهو طيب ، طيب جدا ، ولهذا يتحمل كل ماتقوله النسوة له عند مداخل المترو ، صواحبه فى المعاناة .

– يا شيطان ، يا من تموت جوعا ، لماذا لا تشتغل قوادا ؟

– لا تناديني شيطان ، اسمى أوميكرون .

– اسم جميل ! ليس اسما مسيحيا ، من الذى سماك يا شيطان ؟

– سيدى أبى .

– يالها من سخرية !! أبوك كان أسود ؟

كان أوميكرون ينظر إلى السائلة فى شىء من الاستظراف .

– أعتقد هذا .

بآلة التصوير الصغيرة ، إذا سارت الأمور سيرا حسنا ، كان أوميكرون يربح ما يكفيه للحياة ، يدفع ثلاثة وعشرين شلنا أجرة بيته فى باييكاس يأكل فى مطاعم رخيصة أطباق العدس ، وبقولا غريبة ، لكن فى بعض الأيام لم يكن يجد غير برتقالة كبيرة للطعام ، هكذا ، لكن برتقالة

واحدة فقط ، وأياما أخر لا يجد القوت .

سبعا وعشرين ساعة دون طعام ، واثنتى عشرة ساعة وثلاثة أرباع الساعة – دون أن يحسب الليل – من غير تصوير ، ساعات كثيرة حتى بالنسبة لأوميكرون ، تلدغه العقرب مرارا فى معدته ، يشعر بالتقلص ، تسأله بائعة اليانصيب :

– أترقص ؟

– لا لا أرقص .

– إذن من يقول هذا يا ولد !! يبدو أنك ترقص .

– إنها المعدة .

– جوع ؟

ارتبك أوميكرون ، نظر ببياض عينيه ، كذب :

– لا ، إنها قرحة .

– آه !!

– لماذا لا تذهب إلى المستشفى للفحص ؟

ارتبك أوميكرون أكثر :

– لا بد أن أذهب ، لكن . . .

– واضح ، لابد أن تذهب ، هذا مرض سيىء ، أعرف زبونا دائما عندى مات ، لأنه لم يعالجها .

ثم أضافت فى شفقة وحزن :

– لقد فقدت زبونا جيدا .

اقترب أوميكرون من فتى وفتاة يمشيان بسرعة :

- صورة ؟ ألتقط لكما صورة ؟

نظرت الفتاة إلى الفتى وابتسمت :

- ما رأيك يافد فديريكو ؟

- حسنا ، كما تريدين . . .

- للاحتفاظ بذكرى ، نعم ، نلتقط صورة .

ابتعد أوميكرون بضع خطى ، دقق فى العدسة ، كادت الصورة تهتز ، أعطياه العنوان ، فندق . . . .

هنأته بائعة الياناصيب :

- هيا لقد ابتسم الحظ يا أسود .

- نعم ، لنر ، هل نصنع شيئا اليوم .

صمت أوميكرون صمتا متوترا

- كاسيلدا ، تستطيعين إقراضى شلنا ؟

- نعم يا ابنى ، نعم ، لكن ترده .

- حسنا ، أعطنيه ، وأنا أدعوك لتناول القهوة .

- هل تريد خداعى ؟ أنا أقرضك دون دعوة .

- لا ، إننى أريد دعوتك .

مضت بائعة اليانصيب والمصور نحو الناصية ، وصلا إليها ، دخلا قهوة صغيرة ، صراصير صغيرة ، حشرات تزحف على الخزف ، حيث ماكينة صنع القهوة :

– فنجانيْن باللبن .

قدمت القهوة ، يرتعش الفنجان فى يدى أوميكرون ، مع ملعقة صغيرة صفراء ، وزبد كثير طاف ، شرب القهوة فى جرعات صغيرة ، قالت كاسيلدا :

– هذا مريح صحيح ؟

– صحيح .

"صحيح" خرجت طويلة مصحوبة بتنهيدة .

رجل آخر فى المقهى ينظر إليهما ملحا ، لمحت ذلك بائعة اليانصيب ، انزعجت .

– هل رأيت يا أسود ، كيف ينظر إلينا هذا الرجل ؟ ألنا وجه قرد ؟ وإن كنت أنت بسوادك تلفت النظر ، لكن ليس إلى هذا الحد .

بدأت كاسيلدا تنظر إلى الرجل بعينين قلقتين ، خفض الرجل رأسه ، سأل عن الحساب ، دفعه ، اقترب من أوميكرون :

– عفوا .

أخرج بطاقة من جيبه

– اسمى : روخيليو فرناندث استربميرا مسئول التضامن فى . . . . أعدّ شيئا فى احتفالات رأس السنة القادمة .

– تنحنح ، حسنا ، أظن أننى لا ازعجك ، أنا أعطيك مائة بيزتة إذا رضيت أن تقوم بدور الملك الأسود فى مهرجان بابا نويل .

ظل أوميكرون كالمشلول

- أنا ؟ .

- نعم ، أنت أسود ، وهذا مناسب جدا ، وإلا فعلينا أن نطلى احدا ، حين يصافح الأولاد ، أو يقلبهم عند توزيع الألعاب يصيبهم بالبقع ، أتقبل ؟

لم يبد أوميكرون رد فعل ، غمزته كاسيلدا :

-أقبل أيها الأسود الأحمق . . . مائة بيزتة ، مناسبة لك جدا .

تدخل الرجل :

- خذ البطاقة وفكر ، وسوف تلقانى فى هذا العنوان ، ماذا تريدان أن تشربا ؟

- قالت كاسيلدا : أنا أشرب قهوة كبيرة باللبن ، وهذا قهوة صغيرة مع كأس من الأنيس ، هذه عادته .

دفع الرجل الحساب ومضى .

- وداعا ، فكر فى هذا ، وتعال لتلقانى ، حيته كاسيلدا فى احترام مودعة :

- أورفوار سيدى ، تريد رقما فى اليانصيب للسحب القادم ؟

- لا شكرا جزيلا ، وداعا .

حين مضى الرجل ، قهقهت كاسيلدا .

- حين أحكى لصواحبى أنك ستصير ملكا ، سيهلكون من الضحك .

- قال أوميكرون : إذا حدث وصرت ملكا . . .

لا يكاد أوميكرون رودريجيث يستقر فوق الحصان ، بل ظل يترجرج . تؤلمه ساقاه ، يكاد يغشى عليه ، يبتسم الناس فى الأرصفة

حين يرونه مارا ، يرفع بعض الآباء أولادهم .

– انظر إليه جيدا ، إنه الملك بالتسار .

يصل إلى مسامع أوميكرون رودريجيث محادثة بين شابين !

– هل هو أسود حقيقة أم طلاء ؟

تضايق أوميكرون رودريجيث ، شك الناس لأول مرة في حياته ، هل هو أبيض أم أسود ، وبالدقة حين قام بدور الملك .

تقدم الموكب ، شعر بأن عمامته تكاد تنحل ، عند المرور قريبا من مدخل المترو ، حيث يربض كل يوم ، أدار رأسه ، لا يريد أن يرى كاسيلدا وصواحبها يضحكن منه ، كاسيلدا وصواحبها كن هناك في انتظاره ، تقدمن الصف ، توقفن أمامه ، حين كان ينتظر فرقعة ضحكاتهن ، ضحكاتهن الساخرة ، الوجلة ، الشاذة ، سمع كاسيلدا تقول :

– يا بنات ، إنه جميل جدا ، يبدو مثل الملك الحقيقي .

بعد ذلك دفع الحراس بهن إلى الرصيف .

أوميكرون رودريجيث تشبث بالحصان ، بدأ يصفر في خفوت ، ناداه طفل مشيرا بيده :

– بالتسار ، بالتسار !!

أمال أوميكرون رودريجيث رأسه في وقار محييا .

– لحظة واحدة يا بالتسار !!

آلة تصوير الصحافة خطفت أبصاره .

الراهبة كانديلاس

الراهبة كانديلاس

- غدا آخر يوم .

- حسنا ، حسنا ، شكرا جزيلا .

أقلقها صوت الهاتف البعيد ، الرتيب ، المحايد ، مثل الأصوات القادمة من هناك ، فى سواد سماعة الهاتف شئ فوسفورى يغرق ، وضعت السماعة فى خوف ، حذر أن يغرق خيط الضوء بسرعة ، لأن عينيها فقدتا إدراك الفجوة التى توضع فيها السماعة ، مشت فى الممر المطلى بالشفق متفحصة ، تجر ساقيها ، تتعرف على ثنيات البلاط ، تلمس الجدار بحثا عن مقبض ، تطرف أجفانها ، لئلا تدمع .

لم تصل إلى حاملة اللمبة الحديدية ، تراجعت ، مشاركة الخسوف المنبعث من جسمها ، سائرة بما فى وسعها إلى ظلها العريض المتذبذب ، تقرع ضبة الباب ، قبل أن تصل إلى الباب سألت زاعقة :

- من ؟

- أجاب صوت متسائل : الراهبة كانديلاس ؟

- الآن أفتح .

شريط ملتصق بمصراعى الباب يكاد يعوق فتحه ، امرأة تنزلق فى شهقة عميقة صائتة .

- الراهبة كانديلاس حقا ؟ قالتها الزائرة فى همس مصحوب ببسمة وحركة .

- نعم ، أنا هى .

- لدى منشور . . .

أغلقت الراهبة كانديلاس الباب ، تأملت الزائرة فى صمت .

- ادخلى . . . تقدمى . . . من ذلك الباب .

يدها فوق عينيها ، تقدمت الزائرة ، مستورة بالبريق خلف جسدها ، بخفة وحذر تقدمت الراهبة كانديلاس

- ما أجمل الشمس التى عندك هنا !!

- نعم ، نعم . . . تقدمى

- لابد من إزجاء الشكر صحيح ؟ فى تلك الأيام الباردة ، الشمس فيها أفضل من التكييف .

التفتت المرأة مترددة .

- تقدمى ، تقدمى .

- شكرا جزيلا .

دخلتا الغرفة الدافئة ، المعطرة ، جذوة المجمرة تعمق المسافة ، وتعتم الظلال ، تنعكس فى النحاس ، وفى البلاط ، تذهّب بضباب من الدم الهيكل الشجى لمحور الشبكة السلكية .

- لحظة واحدة ، سأشعل . . . إجلسى يا ابنتى ، اجلسى .

كان صوت الراهبة كانديلاس مليئا بالأمومة ، أمومة غامضة ، تنهدت المرأة .

- قالت : هذا شئ جميل ، لم أكن أتخيله هكذا .

- واضح ، واضح ، اقتربى ، هنا بجانبى . . . حسن .

جلست الراهبة كانديلاس فى كرسى من القطيفة الخضراء ، عال ، له مسند ، فى الركن ، خلف الزائرة ، مائدة صغيرة قديمة من المرمر الأبيض ، كانت هى الأثاث العدائى الوحيد ، المذكر بالاستشارة .

شبكت الراهبة كانديلاس ذراعيها فوق حجرها ، وانتظرت .

- صاحبة لى . . . تعرفين . . لا أستطيع . . .

- قالت الراهبة كانديلاس شاكية : لماذا ؟

- لست من مدريد . . . تعرفين . . . لست متعودة . . . إنها قالت لى : إنك مثل الأم ، لكنى كنت خائفة . . . هذه المسائل . . .

- الطرق - استضاء وجه الراهبة - الطرق التى لا نعرفها - يا أختى - فيها أشواك ، وعسير السير فيها ، لكن الإرادة . . .

غمغمت الراهبة كانديلاس بشئ لم تفهمه المرأة ، بعد ذلك أغمضت عينيها ، كأنها تنام أو تتأمل ، تنعم المرأة النظر إلى وجهها .

- قالت الراهبة كانديلاس فى عذوبة : استمرى ، استمرى ، حل مشكلتك معى .

- الأمر - كما ترين - أيتها الراهبة . . . حين أتيت إلى مدريد هذا الصيف عرفت رجلا . . . وأنت تعرفين ما يحدث ، بدا لى أنه عاشق . . . وأنا أعرف الآن أنها كانت حماقة ، قال الجميع ذلك لى . . . أحيانا يشعر الصواحب بالحسد . . . كان رجلا ممتازا معى . . . والآن لا أعرف ماذا أصنع . . .

نشجت المرأة ، فتحت حقيبتها البلاستيكية ، أخرجت منها منديلا .

- واصلت : هذا عقاب ، عقاب من السماء . . . لقد عانيت كثيرا منذ الطفولة . . . أنت تعرفين . . . لا يهتم أحد .

لاتكاد تحرك شفتيها ، الراهبة كانديلاس شرعت فى الكلام ، كلماتها تملأ الغرفة كلها ، كانت كلماتها عذبة ، ملاطفة ، تعجُل بالنحيب ، إيقاعها مثل الصلوات ، وغير مفهومة .

- القلب يا ابنتى يبحث مثل الطائر ، مسكين هذا القلب !! يبحث عن عش صغير ، من أجل القلب المسكين ، لا يهمه أحد . . . يا ابنتى ، هنالك حيث يسود الصمت تعثرين على ما يبحثه القلب . . . يا ابنتى الصغيرة ، هنا يخدعونك ، يخدعوننا جميعا ، نحن مثل الطيور فى الشتاء ، مثل طيور حزينة ، تبحث ، وتبحث . . . ابكى مثلى من أجل قلبك وقلوب الجميع . . . القلوب الوحيدة ، الوحيدة . . . بينما ينتظرنا هنالك . . .

خمدت كلماتها ، بقى فى الغرفة ما يشبه همس الترتيل الطافى المحدق ، حتى غدا نشيج الزائرة رديئا ، قامت الراهبة كانديلاس وأخذت من برطمان كان فيه مربى من قبل ، قبضة من الخزامى ، حركت المجمرة بعود ، وألقت البخور .

ألهب الدخان العيون ، فدمعت ، حين عادت للجلوس جعل الصمت المرأة تبكى ، قبل أن ترفع رأسها المستريح بين يديها ، ويحدث أنفها صوتا ، أنعمت الراهبة كانديلاس النظر فى صورة الزائرة المنعكسة على المائدة ، فاجأت النظرة البعيدة المرأة ، برطوبة خديها ، ودمعتها التى

لاتزال جائلة فى زغب الذقن ، عاود المرأة حزنها المضاعف ، عذا نحيبها مسموعا أكثر ، منطقنا أكثر ، وقويا أكثر .

- قالت الزائرة . امرأة تعيش وحيدة تماما . . .

- أكدت الراهبة كانديلاس : إن وحدتنا قاسية جدا ، لكن الأصوات الصديقة تقودنا دون أن تدعنا نيأس .

- ماذا نعمل أيتها الراهبة ؟

- الأصوات الصديقة تناديك حين يحين الوقت ، عليك أن تثقى ، سنذهب فى سكون إلى الطرق المليئة بالموسيقى والأغانى . . .

بسطت الراهبة كانديلاس يدها اليمنى ، قبلتها المرأة .

- قالت الراهبة كانديلاس بصوت مرتجف : لا ، لا ، يا ابنتى ، أعطنى يدك ، يدك اليسرى لنمضى معا ، لكى أحملك ، وأنت تحملينني إلى الأفق الجوانى حيث يدعوننا .

قبضت المرأة على يد الراهبة كانديلاس ، أغمضت عينيها .

- لا ترتجفى ، يا صديقتى للأبد ، لن يحدث لك شئ ، قالت الراهبة كانديلاس هذا فى نبرة ذات صدى عميق فى صوتها ذاته .

بقيتا صامتتين ، جذبت الراهبة كانديلاس يدها من يد المرأة .

- احتفظى بحرارتى كما أحتفظ بحرارتك ، ولا يمكن أن تضيع أبدا !! عليك أن تحضرى كل أربعاء فى هذه الساعة ، اقبضى يدك الآن ، وفكرى فى حرارة الأخوة التى لا تضيع أبدا ، واسمعى الأصوات الصديقة التى تمدك بالسلوى ، حين تشعرين أن يدك باردة ، اقبضى على التميمة التى

سأعطيك إياها ، وستشعرين حالا بحرارة الأخوة ، والآن يجب أن ترددى معى ، أيتها الأخت والصديقة إلى الأبد .

– رددت الزائرة : أخت وصديقة إلى الأبد .

– . . . سنذهب معا حيث ينتظروننا .

– . . . سنذهب معا حيث ينتظروننا .

– . . . ليكن هكذا دائما ، هذه إرادتى .

– . . . ليكن هكذا دائما ، هذه إرادتى .

– . . . أخت وصديقة إلى الأبد .

– . . . أخت وصديقة إلى الأبد .

نظرت الراهبة كانديلاس إلى المرأة التى كانت تلهث متأثرة ، نهضت .

– لن أدعك وحدك ، أنا معك . . . سأذهب لإحضار تميمة النار التى عليك أن تحمليها .

آخر أشعة الأصيل لوّن الممر بلون خبازى ، لون مكثف ، يتلاشى عند مرور الراهبة كانديلاس .

حين وصلت إلى حجرة النوم ، كان عليها أن تشعل النور ، وفى لحظة تأملت الأشياء الأليفة ، وشاركتها سكونها الأسرى ، اللعبة التى ينقصها أحد الأزرار الكبيرة السوداء تقبع مفرطحة فى وسط السرير ، المسند المرسوم فيه قط أسود مطرز بسواد قاتم على كرسى صغير حيث تضع الملابس حين تخلعها ، اللعبة ذات الحامل الطويل بتكوينها الأحمر

القانى تثير الشعور الحميم ، فتحت الصوان ذا المرايا التى أمامها كل يوم تفزع من زمنها ، وتسجل فى أحد أدراجه ، هنالك توجد الأشياء ، اختارت بالمصادفة إحدى التمائم .

كانت التميمة حجرا صغيرا أسود مؤطرا بالأحمر ، مع قرط يتدلى ، يلمع فيه هلال ضئيل ، داعبته الراهبة كانديلاس بين أصابعها ، ثم بحثت فى الدرج عن كيس صغير من القماش لكى تغلفه .

عينا الزائرة حمراوان ، حين نادت عليها الراهبة كانديلاس بدا أنها لا تصغى ، شفتاها تتحركان كالبكماء .

– الرقية انتزعت منذ سنوات طويلة ، من شئ ، من دمه . . . هيا خذيها . . . شئ من دمه الفوار . . . لم يملكها أحد من قبل . . . تأتيك بكرا من جبل النار ، احمليها دائما معك .

وضعت الرقية فى يد المرأة .

– قالت الراهبة كانديلاس : الوقت متأخر .

أحنت المرأة رأسها ، وأغمضت عينيها ، داعبت الراهبة كانديلاس شعرها .

– الوقت متأخر يا ابنتى ، وحسبك ماصنُعناه اليوم .

رفعت المرأة رأسها فى بطء ، نظرت إلى الراهبة كانديلاس .

– أسمع كلمات أيتها الراهبة ، أسمعها .

– لا يا ابنتى ، الآن لا ، حركت رأسها نافية ، وحركت أجفانها ، بينما كانت كلماتها تحوى هزة خوف ، الآن لا .

– إننى أسمع الكلمات ، أيتها الراهبة ، أسمعها ، سوف يعود ، يقولون لى ذلك ، نعم ، نعم ، أسمع – تقول هذا فى وقار – يقولون لى ذلك ، لابد أن تستمعى إليها أيتها الراهبة .

– لا يا ابنتى ، إنها خيالاتك .

– يتحدثون إلى من بعيد جدا . . .

الراهبة كانديلاس ساعدتها على النهوض ، وهى تكرر :

– من بعيد جدا ، لكنى أفهمها .

عانقت المرأة الراهبة كانديلاس التى ربتت على ظهرها برقة .

– لا لا ، مازال الوقت مبكرا ، مبكرا جدا .

– كأنهما يصليان . . .

– كلمات رجل أو امرأة ؟ سألت الراهبة كانديلاس وندمت على السؤال .

– لا أدرى .

– اهدئى ، حسبنا ماصنعناه اليوم .

– الآن لا اسمعها ، فجأة لا اسمعها .

– حسبنا ما صنعناه اليوم يا ابنتى ، خذى حقيبتك ، تأتين الأربعاء القادم ، فى الأصيل أنتظرك . .

– قالت المرأة فى ألم : لم أعد أسمعها .

– كانت خيالاتك ، إنك مهتاجة جدا .

– لا ، أيتها الراهبة .

– حسنا ، لا تتحدثى مع أحد عن الأصوات التى تعتقدين أنك سمعتها

– لكن إذا كنت قد سمعتها . . .

– نعم ، نعم ، لا تقولى لأحد ، لاتقولى لأحد .

مسحت الزائرة عينيها بمنديلها ، أصلحت شعرها قليلا ، حركت حقيبتها حركة مشلولة متبوعة بصوت الراهبة كانديلاس :

– اتركيه على المائدة ، اتركى ما تريدين .

اقتربت المرأة من المائدة ، خفضت الراهبة كانديلاس رأسها .

– قالت الزائرة : سأحضر الأربعاء ، لن أتخلف ، شكرا جزيلا أيتها الراهبة ، لا أدرى ما أقول لك ، لكنى الآن أهدأ ، بل أكاد أكون مسرورة .

– عودى يا ابنتى .

أغلقت الراهبة كانديلاس الباب ، مشت ببطء فى الممر المظلم ، تمتص العتمة صورتها ، تحولها إلى ضباب جاس ، دخلت الغرفة وقبل أن تجلس رمت قبضة من الخزامى فى المجمرة .

دق جرس الهاتف ، خرجت الراهبة كانديلاس من الغرفة .

– نحن هيئة الهاتف : لك إيصال غير مدفوع .

– متى تنتهى المهلة المحددة ؟

– غدا آخر يوم .

– حسنا حسنا ، شكرا جزيلا .

أقلقها صوت عاملة الهاتف البعيد ، الرتيب ، المحايد ، مثل أصوات ذلك ....

....

حجارة الصحـــراء

حجـــارة الصحـــراء

كل شئ ضجيج ، كل شئ متشابه ، طنّان ، متحرك حار ، ضخم ، كلام ، يمتزج فى شئ حار وحميم ، يدعى ضجيجا .

كان جالسا على مصطبة باب داره ، لمسه الخشن يتفحص دون جدوى بحثا عن تجاعيد الحجر ، يعثر فقط على الملاسة ، نظرته المتهمة لاتكل من تخطيطات المنظر ، رجال ، وحقل ، وحيوانات ، وبيوت تشكل فيلما مطموسا ، عمقا بعيدا ، ذكرى شاردة للواقع ، تنازل سمعه عن كفاحه مع الأصوات ، لا يحاول حتى التقاطها ، غدا تاركا للاقتحام ، غارقا فى الضجيج ، فى صدى الحياة والأشياء ، أصبح العالم لا رائحة له ، ماسخا ، وبصورة نهائية مُقَطّرا فى عدم المبالاة .

لا يحكون معه ، يدرى هذا ، يود ألا يحكوا معه ، ينبغى ألا يعكروا بحيرته الساجية ، يود أن يترك وحده ، حتى يتبخر كليا ، حتى يضم موجته الأخيرة فى حياته إلى الضجيج المطلق .

يحيا بشعورين وحيدين : الحرارة والبرودة ، فى ساعات الصباح الأولى يخرج إلى باب داره ، يجلس على المصطبة ، تدفعه حرارة الظهيرة إلى ظلال المطبخ ، هنالك تغفو فكرته الملحة عليه فى امتحان نفسه ، حين تنحدر الشمس يمضى ليغرق فى ضوء الأصيل الملتبس ، فى انبثاق الأرض الحار ، فى خلية مزاح أحاديث الجيران ، فى صرير الطيور فوق الداردار الصغير ، الظلام الرطب ينتهى بإعاقته يطلب مساعدة ، يساعده

أحدهم – جار أو أحد الأهل – يدخل الدار ، وفيها يختفى فى غرفته "alcoba" .

كان يجلس على المصطبة ، ناظرا إلى الحقل ، ، يرسم تخومه من الذاكرة : قطعا من الأرض ، مؤجرة ، وإرثا ، وعقود بيع وشراء . . الطريق إلى المبنى الصغير لمحطة القطار . . . أضفات تمتزج بمسألة الطريق ، مستقيما كالعصا التى يهمزون بها البقر ، أبيض حنطيا ، بلا نهاية فى وحشته ، الحقل أصفر مثل لون جلده ، يتاخم السماء الصافية الزرقة ، ينعم النظر إليها ، كانت معتمة متوعدة ، الحقل مثل لون جلده ، متشقق ، منحدر ، عال فى بعض المناطق بسبب الحجارة وتخطيط الأرض .

الشمس تغرق خلف أشجار الحور حول ساقية acequia جافة ، بياض الطريق مسيل بنفسجى ، صفرة حقل الحنطة تغدو مثل الحديد المؤكسد ، فى غابة الحور ، يعجن الظلام كل الأوراق ، كل الارتعاشات ، كل الارتجافات فى ضباب .

ترك التفكير ، دغدغه ضجيج الحياة ، وهمهمة المنازل «حين مشى المرحوم خوان من القرية» «حين ولد ابن ماريا البكر» «حين حدثت جريمة البئر الصغيرة» «حين حين حين» (كتب المؤلف هذه الجمل متشابكة الحروف) حتى كلمات الجيران فى مسامراتهم عند أبواب دورهم ، وضجيج الحيوانات ، وضجة عربات الكارّو تصدم حجارة الرصيف ، وطيور الزرزور ، والغربان ، والعصافير ، غناؤها احتكاك فوسفورى ،

وخشخشة لهب يطفئه فقط ندى الصباح ، النسيم الفاتر الذى يطقطق الحراشف اليابسة ، الموشحة المألوفة ، ضجة الأطفال الشاردة ، تصنع كلها موجة واحدة منطلقة جدا تنخمد فيه .

فكر كيف كان الضجيج «حين كان العجوز شانسث فى حرب كوبا» ضجة الحراشف الجافة ، أنغام الزرزور الخشنة ، تفتيت الحجر بعجلة العربة الكارو ، تشاجر طيور أخرى . . . فكر كيف كان الضجيج ينخمد فى رجل من القرية كان ينتظر مثله «غدا الأحد – سمع هذا القول فانخمد الضجيج – غدا الأحد ، أريد أن أذهب إلى المدينة» عاد الضجيج .

– سأل : من يمد لى يده ؟

شعر بيد قوية فوق ذراعه ، تتجاور اللمس إلى العظام ، انحنى دون أن ينظر إلى من يساعده ، مشى نحو الباب ، «فكر : غدا الأحد ، الصلاة مبكرة ، علىّ أن أستريح ، لا أستطيع التخلف ؛ لم يبق لى إلا القليل فى الدنيا» .

– قال مساعده : إلى اللقاء صباحا يا جدى .

دخل الدار ، عثر بحافة بلاطة ، تابع مترددا ، وصل إلى السلالم .

– قالت امرأة : أبى ، تريد أن تأكل شيئا ؟

أومأ بالنفى ، ألحت المرأة :

– قليلا من الحساء ؟

فى عتمة السلالم ، بحث بضربات العصا عن حواف الدرج «فكر : غدا لابد أن أنهض مبكرا ، والآن ليتنى أستطيع النوم» .

تفوح غرفته بالرطوبة ، فى الصباح طلاها أحد أبنائه بالجير ، يفوح العالم بالرطوبة ، فكر فى أن هذه رائحة المقابر ، الأرض الوحيدة الرطبة فى جزء الحجر الذى لمسه حيا ، الأرض الوحيدة التى تلتصق بها الأحذية ، كأنها تريد أن تحتجز مشيعى الجنازات ، أو زائرى المقابر فى المناسبات ، «فكر : رطبة بصورة غير طبيعية ، والآن ، لابد أن أنام» .

خلع ملابسه فى بطء ، انطرح على السرير ، وجد مكانه على مرتبة الصوف الإسبانى ، هدية زواجه ، هدية فاخرة من حميه ، هدية مترفة لانظير لها فى القرية ، تعليق فاحش انبعث من مكانه ، وذاب فى القرى حتى البعيدة منها الضائعة فى الأفق ، فى فقر الصحراء وفقر ناسها كانت مرتبة صوف إسبانى تعد ذنبا تقريبا .

أغمض عينيه ، وبسط ذراعه اليسرى ، فكر فيما إذا قيد يده بامتداد السرير فربما يروح إلى مكان آخر ، وبسطها يجعله ينسج ذكرى ، ذكرى أربعين عاما لجسد كان ينام بجواره ، يحيا بجواره ، ينجب له أولادا ، من هاوية يتعرف عليها هو وحده ، ماريا هنالك ، هنالك بقى ضجيجها وصداه ، لكن التذكر غير مجد : ماريا منذ سنوات طويلة وجدت مكانها فى الأرض الرطبة ، «فكر : رطبة بصورة غير طبيعية ، رخوة ، دون حجارة . . » تنفس بعمق ، سحب ذراعه « . . . والآن لابد أن أنام» .

كانوا يكسرون حطبا فى السياج ، أو كانت صواريخ ، كانت طلقات صيد ، يدخل الضوء من خلال النافذة ، عجينة ضوء الصباح ،

كانت طلقات صيد ، ينتشر الضوء متدفقا حتى بلغ أرجل السرير ، الطلاء الجيرى للجدران يبدو رماديا ، طلقات متتالية أكثر من اللازم من طلقات الصيد ، طلقات متتابعة أكثر من اللازم للصواريخ ، جمع شتات نفسه بصعوبة ، ترك يديه ترتخيان حتى البطن ، حاول تفحص طبيعة القصف ، «حين كان العجوز شانسث فى حرب كوبا» سمع بوضوح تفريغ شحنة ، ثم أخرى ، طلقات متفرقة من بنادق ، حينئذ طرقوا الباب عليه ، طرقوا الباب بقبضات الأيدى ، ميز وسط غموض آسر صوت ابنته الكبرى :

– هل أنت هنا يا أبى ؟ هل أنت بخير يا أبى ؟ أجب حالا بالله عليك .

– سأل : ماذا حدث ؟ لماذا توجد طلقات فى الشارع ؟ لماذا يطلقون الرصاص ؟

– هل أنت بخير ؟ الآن لأى شئ يطلقون . . .

الكلمات الباقية تلاشت فى الغمغمة ، فى صوت صلاة .

أزاح الثياب عن السرير ، ترك يده اليسرى ترتاح على سداة المرتبة القديمة ، ظل جالسا لحظة ، يحك قدميه العاريتين بسجادة على الأرض ، نزل بعد ذلك ، شعر ببرودة البلاط فى باطن قدميه ، حين اقترب من الباب سمع نشيجا ، فكر فى أن ابنته انتظرت ، ثم عادت إلى طريق الباب .

– لماذا يطلقون الرصاص ياخوانا ؟ من الذى يطلق ؟

بدا له أنه يسمع نحيب الأطفال الصغار ، عثور شخص على السلالم ، خوانا تطرق الباب فى قنوط ، تلاشت الطلقات ، ونشيج

الأطفال البعيد وضجيج السلالم .

- صرخات إلى خوانا : قولى له يفتح ، قولى له يفتح .

سمع زوج خوانا ، كان صوته متعجلا ، آمرا .

- افتح ، افتح ، افتح ، افتح .

تصاعد صوته حتى الصراخ .

فتح ، رأى خوانا شعثاء الشعر ، باكية ، يظهر - من طوق قميص النوم - صدرها الطبيعى الأبيض المصفر ، فى مواجهة المثلث الأسمر القروى فى حنجرتها ، رأى زوج ابنته بينيتو بذراعين لوحت ظاهرهما شمس العمل ، بينما باطنهما شاحب ، وقميصه من القطيفة وسخ باهت ، وبنطلونه من القطيفة السوداء ، ولحيته المهملة طوال الأسبوع دون حلاقة تغطى وجهه ، فكر فى الطلقات ، بعد ذلك شعر - فوق ضعف جسده - بوزن ابنته وهى تعانقه .

- قال بينيتو : البس حذاءك وانزل .

- قالت خوانا وهى تبكى فى انتحاب : يا للمصيبة ، يا للمصيبة !!

- قال بينيتو من جديد : انزل ، لا تقترب من النوافذ .

- سأل : من يطلق الرصاص ؟ ماذا حدث ؟

بغتة ، ظل الثلاثة صامتين ، خوانا تحبس نَفَسها ، يسمع بكاء الأطفال كأنه الترتيل ، ضجيج عربة ضخمة تمر ، أيقظت كآبة البيت ، ظلوا متوترين ، حتى انصلح المحرك ، وتلاشى فى النهاية على البعد ، إلا أن الضجيج المضاد ظل فيهم ، فى خيالهم ، فى ذواكرهم ، عادوا فقط

من ذهولهم حين اقتربت جدا مجموعة طلقات مؤكسدة من الرياح الصباحية ، طرقت باب المنزل قبل أن يتعمق المنظر .

- قال بينيتو : انزل .

- قال هو : ذهبوا فى طريق المحطة .

- قالت خوانا : انزل يا أبى .

نزع نفسه من ابنته ، مضى خطوات ، وصل إلى السرير ، جلس .

- صرخ بينيتو : انزل .

فكر فى أنه لا رغبة له فى النزول ، حذاؤه الأسود كان بجوار مائدة المساء فى درجها الصغير يحتفظ بحذائه الشتوى ، جلده طرى مخدوش ، أبيض «فكر : لن أنزل حتى تحين الساعة ، اليوم الأحد ، لن أنزل ، فى هذا الشهر «يوليو» يبزغ الصبح مبكرا ، ولم تحن الساعة بعد !!»

خوانا تلبسه حذاءه ، وبينيتو يحمل بنطلونه بيديه فى هيئة من يحمل عباءة مصارع الثيران التى مزقتها الهزيمة ، منتظرا قيامه .

- طلب : اتركانى ، اتركانى .

حين لبس حذاءه ، وقف .

- قال لبينيتو : هات .

ضوء الصباح ينحل ، يتضح جير الجدران الأبيض .

- قال لخوانا : القميص ، أعطنى القميص .

- صرخ بينيتو ، متابعا اللعنات : البس الجاكتة ، وانزل ، كفى .

نسى تمرده ، تريدان أن أنزل ، أنزل ، لف حزامه الأسود حول خصره ،

مشى نحو الباب ، حاولت خوانا مساعدته فى نزول السلالم .

- لا أحتاج إليك يا خوانا ، حسبى . . . .

عادت العربة الضخمة ، صوت محركها الخشن قطع كلماته ، شُلّت الحركات للحظة ، كل شئ غدا مثل وقع البرقية ، الثلاثة عجلون ، نزلوا إلى الصمت الكدر ، إلى الخوف الغامض للأسرة فى المطبخ .

- سمع قائلا : يطلقون الرصاص ضد المنازل .

لم يستطع تمييز الصوت ؛ لأن الصوت فقد نبراته الشخصية ، غدا مثل صرخة مؤرقة فى المنام ، جلس على مقعد ، على يمينه الأطفال يحيطون بتيريسا ابنته الصغرى التى تفتح ذراعيها لحمايتهم ، «فكر ! يطلقون الرصاص ضد المنازل ، والآن ، لن ينتظر أحد ساعته فى هدوء» .

صفر بينيتو ، التف الأطفال حول تيريسا ، تسلل الكلب خفية برجليه الخلفيتين أضناهما الخوف ، باحثا عن العتمة ، صفر بينيتو من جديد : إلى الصمت ، الخوف ، الكلب ، الفكر ، وعيه الشخصى المركز فى حوادث الشارع .

- قال بينيتو : لقد ذهبوا .

صوت بينيتو وجد صداه عند الظلال : تنهيدة كأنها النشيج ، لهاث بكاء الأطفال ، تنفس ، حركة مطلقة .

الظلال تُخْلى المطبخ من حضور الكائنات ، تلطخها بخيلات متهمة ، فكر فى وجهه المنعكس فى مياه جب الساحة ، مياه قليلة لكنها أسطورية فى عمقها ، فكر فيما قيل عن يوسف فى التوراة ، لقد طرح

فى الجب ، هنالك كان وحده فى الظلال ، فى صدى صوته ، فى ملمسه المخيف ، فى رائحة الرطوبة ، فى طعم ريقه .

- كرر بينيتو : لقد ذهبوا ، سأذهب لأرى . . .

تبدو الكلمات بعيدة ، فسرها بأنها فكرة عابرة من حماسة تولدت فى بينيتو من الانتظار ، أتت للقلب بغتة ، كأنها إغلاق قبضة اليد ، ضرب على صدره ، يدفعه للخروج .

- سأذهب لأرى . . .

وصلت كلمات بينيتو إلى الجميع ، ورأوه فى لحظة ، ومضة برق ماتت على باب الدار .

- صرخت خوانا : لاتذهب ، يا بينيتو ، انتظر ، انتظر . . . .

تلاشت الظلال فى أصوات ، فى حركات ، فى بكاءات متقطعة ، خرج بينيتو إلى الباب .

عبر كوة صغيرة ، رأى بينيتو الشارع خاليا ، بقى يقينا أثر سير العربة الضخمة فى دمنة ، فتح الباب ، أطل ، نظر نحو طريق المحطة .

ناظرا من الباب نحو طريق المحطة ، اندهش الجيران ، تركوا مأوى البيوت ، وعند نقطة من الشارع شكلوا جماعة .

كانت ظلال المطبخ حجابا خفيفا من الظلمة فى الأركان ، يدخل ضوء النهار من الباب بشدة ، وتخف فى المطبخ ، فكر فى الخروج إلى الشارع ، نهض من مقعده ، وبدأ يمشى .

- اتركينى يا خوانا ، اتركينى .

ضرب بعصاه عارضة الباب ، حين كان ضوء الصباح يعوقه متقلصا ، مرتجفا ، جافا تماما ، يجرح الهواء جلده ، فكر فى تلك اللحظة لو كر به الزمن ثلاثين سنة إلى الوراء .

– نادى : بينيتو ، بينيتو .

اقترب بينيتو .

– من كانوا ؟ لماذا كانوا يطلقون الرصاص ؟ هل ذهبوا فى طريق المحطة ؟

أخذه بينيتو من ذراعه ، ساقه نحو باب المنزل .

– قال : ادخل .

قادم .

– سأل أين القسيس ؟

– قال بينيتو : ادخل .

– والصلاة ؟ إنها لازمة أكثر من أى وقت آخر .

– كرر بينيتو : ادخل ، لاتبق هنا .

– علينا أن نذهب إلى الكنيسة .

– الكنيسة مغلقة ، لقد ذهب القسيس مع رجال العربة الضخمة .

نظر إلى عينيه ، كانت عينا بينيتو – كما بدا له – أكثر سوادا من أى وقت آخر على الإطلاق .

– ادخل ، ادخل ، لقد ذهب إلى المدينة .

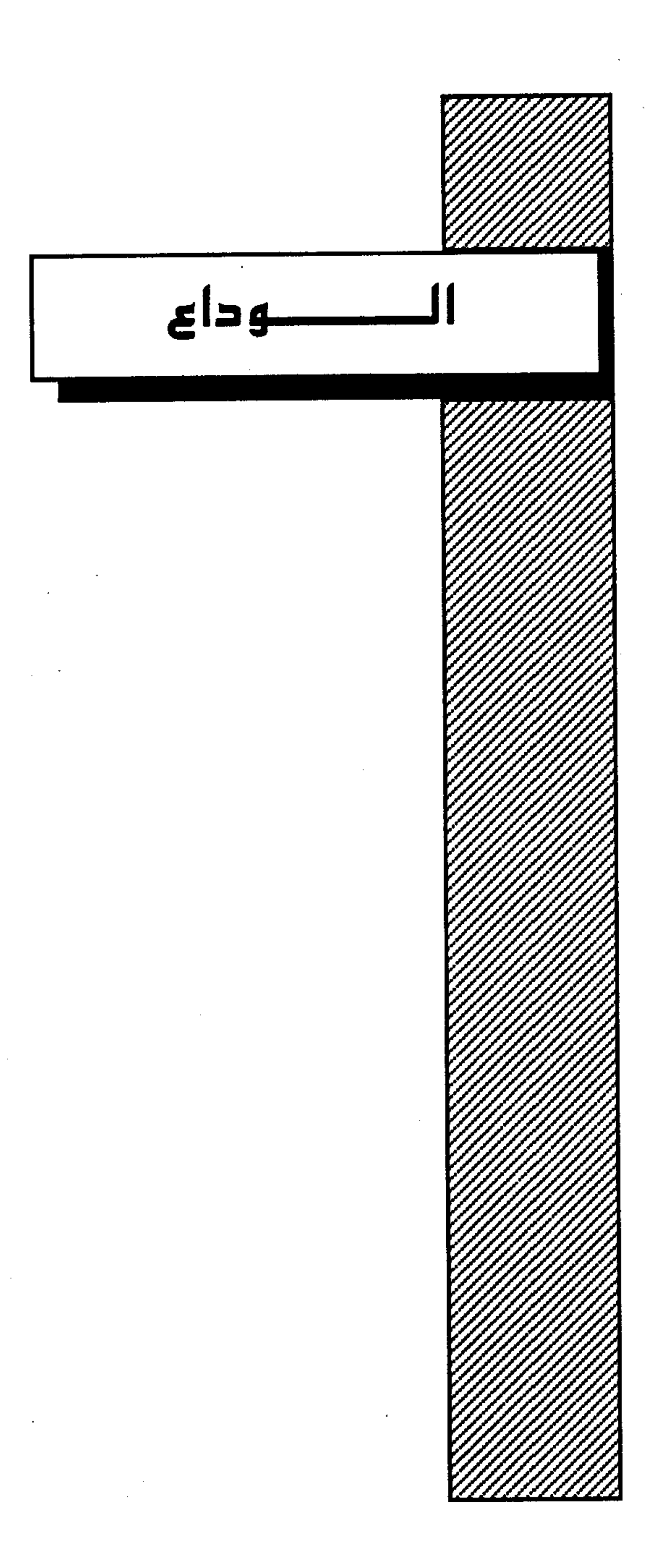
– غمز : لقد تركنا ، لقد تركنا .

أغلق بينيتو باب الدار ، تركه وحده فى الظلال ، عثر فى حافة بلاطة ، دخل بلا هدى إلى المطبخ ، صحبته خوانا إلى المقعد .

كلمات بينيتو تطرق مسامعه مرة بعد مرة ، تتوغل فيه ، تستقر فى قلبه ، ضجة تنمو ، تلفه ، تحمله ، الكلمات تصدمه فى أعماقه ، تجعله يتأوه ، تشطره ، فوق رأسه تنثال حجارة متوحشة ، قاصفة ، أسطورية موجات مدوية ، غدت وداعة الهمهمة المألوفة غيظا جارفا ، مرة فمرة الكلمات تصل ، تغرق ، تتصادم فى فؤاده ، «فكر : لست أستحق هذا ، إنه كثير بالنسبة لى» .

دخل بينيتو ينشج .

عاد الأطفال إلى البكاء ، صوت الطلقات يبتعد ، تذريها رياح الصحراء .



الــــــــــوداع

الـــــــوداع

عبر زجاج باب الكابينة ، ونافذة الممر ، كان المنظر السينمائى مسطحا ، لاتخترقه النظرة ، ترسم السرعة منظورا بسيطا للعمق ، صفرة حقول القمح ، وحمأة الطين ، وتراب الحقول المحاذية للخضرة المائية للكروم تحدث رتوبا مثل أنفاس الأرغول .

فى قيلولة الأصيل الصيفى ، لا يكاد المسافرون يتجاذبون أطراف الحديث ، إلا جملا حائرة متناثرة ، تطل الشمس من نافذة الكابينة ، وكانت الستارة المشمعة مسدولة .

كان إيقاع السير يمزق الوقت ويجمعه ، مثل سير الساعة ، ومثل الترتيل ، كان المسافرون يتأملون – متبادلين – دون دهشة ، والملل المرهق من السفر يعوقهم عن إتصال المصادفات ، حركاتهم أقرب إلى الأسرية – فى لامبالاة لكن بينهم حواجز ومسافات .

حين خفت سرعة القطار ، قامت الفتاة الجالسة بجانب النافذة – فى حركة أقرب إلى حركة المشى – وعدّلت إزارها ، وشدت حزامها بحركة سريعة يدوية ، مختالة ، وبعد ذلك سرحت شعرها المشعث الفاحم الذى يشبه الحلفاء ، كأنها مستيقظة لتوها من النوم .

– سألت : ما هذه المحطة يا خالتى ؟

أجابها أحد الرجال الثلاثة فى الكابينة ، قبل أن تجد السيدة الجالسة قبالتها وقتا للرد .

- هل يوجد كانتين ؟

- لا ، يا آنسة ، فى المحطة القادمة .

أومأت الفتاة بحركة يمكن أن تكون استياء ، أو ببساطة يمكن أن يكون الدلال مبعثها ؛ لأنها فى الحال ابتسمت للرجل الذى أجابها ، استنكرت السيدة العجوز البسمة ، رفعت يدها اليمنى إلى صدرها المحمر الذى يكاد يكون بنفسجيا ، تكور لَبَبُها فى الوقت الذى رقت فيه شفاهها ، أغمضت أجفانها ذات الأهداب الوطفاء .

سأل الرجل : هل أنت عطشى ؟ أتودين جرعة من النبيذ ؟ .

قالت السيدة العجوز : إنها تخنق ، ولا تطفئ الظمأ .

- كيف يا سيدتى ؟ النبيذ - قليلا - جيد .

نزع الرجل قربة النبيذ من حقيبته ، وقدمها للفتاة محذرا :

- احترس أن يسقط شئ فوق ملابسك .

فتشت السيدة العجوز حقيبتها ، وأخرجت منديلا كبيرا يشبه الفوطة .

- قالت للفتاة بلهجة آمرة : ضعى هذا ، فمن الممكن أن تخسرى الفستان .

تأمل الرجال الثلاثة الفتاة وهى تشرب ، ابتسم ثلاثتهم فى عبث وبلاهة ، أيديهم ضخمة مثل أيدى الفلاحين متكئة بثقلها - على ركبهم ، كان انتظارهم مسرحيا ، كما لو أن شيئا متوقعا مضحكا جدا سيحدث ، لكن شيئا لم يحدث ، جففت الفتاة نقطة سالت على ذقنها ، كانت على

حافة الانزلاق تحت حنجرتها ، نحو تخوم الصيف ، المحددة فى صدرها بواسطة زخرف شاحب يزين طوق الفستان الذى يقابل لون الجلد الدخانى المعرض للشمس .

تهيأ الرجال للشراب فى احترام وحفاوة ، حينما أشتد صخب القطار ، وعلامات إيقاع السير أخذت فى الاهتزاز ، صاحب القربة أسندها فى اهتمام ، كما لو أن بها حياة متحركة ، أحكم إغلاقها بلباقة وحنو .

– قال : ها قد وصلنا المحطة .

– قالت السيدة العجوز ؟ كم يتوقف هنا ؟

– إنهم ينزلون بضائع ، ولا ندرى ، المفروض أن يتوقف هنا ثلاث دقائق .

– اشتكت العجوز : ما أشد الحرارة ! وشرعت فى جلب التهوية بمجلة سينمائية ، ما أشد الحرارة ! وما أردأ المقاعد !! فى قطار النوم . . . .

تحدث الرجل الجالس بجوار الباب شارحا : كان القطار قديما أردأ ، كانت المقاعد قبل من الخشب ، والطلاء متحلل ، قبل ذلك كان على المسافر إلــى العاصمة أن يقطع أربع ساعات طوالا ، اذا لم يتأخر القطار ، قبل ذلك لاتجدين مقعدا ، وعليك أن تسافرى مع السلال فى الممر ، لقد تغيرت الأمور ، والحمد لله . . فى أيام الحرب . . . فى أيام الحرب لابد أنك رأيت هذا القطار ، كل ثلاثة فراسخ يتوقف ، وجميع المسافرين ينزلون ، فى أيام الحرب . . .

ظل لحظة صامتا ، سمعت فرامل القطار ، كأنهاتصادم .

- قالت العجوز : ما أشد الحرارة !

- أكد صاحب القربة : الآن يمكن الشراب .

- قال الرجل المتحدث عن الحرب برقة ورجاء : هات من فضلك ، لابد من إزالة أثر الدخان ، ألا تريدين يا سيدتى ، وقدم القربة للسيدة العجوز .

- لا ، شكرا ، لم أتعود .

- على الشراب ، يتعود الإنسان بسرعة .

قطبت السيدة العجوز جبينها ، وتوجهت هامسة إلى الفتاة .

المناجاة الهامسة كانت تحوى نوعا من الاحتقار للرجال الجالسين فى الكابينة ، إذ قامت هذه المودة الجانبية ، جعل الرجال القربة تمر ، شربوا معا ، تواصل الحبل بينهم فى لحظات ، تحدثوا عن قدوم الحقول ، كانت كلماتهم تشى بالأمل ، عادت السيدة العجوز إلى جلب التهوية بالمجلة السينمائية .

- قالت للفتاة : لقد قلت لك : كان يجب أن نحضر معنا قليلا من الفاكهة ، لقد ألحت علينا «إنْكَارْنَا» ، غير أنك . . .

- فى المحطة القادمة كانتين يا خالتى .

- سمعت هذا من قبل .

أنطفأ أحمر شفاة السيدة العجوز ، وسال عن حدود الفم ، لا يغطى ذراعاها عرق الإبط الذى يسرى فى اتساع بعيدا عن فتحة القميص .

رفعت الفتاة الستارة المشمعة ، مبنى المحطة قديم ، مهجور حزين

محروس ، فى واجهته القذرة تبدو - كما لو كان زحمة ألوان - نافذة فيها أصص مزهرة ، وأوعية من النباتات ، فى طنف السقف البنى مثبت تطريز خشبى رمادى مشروخ ومتهدل ، فى جهة منها مراحيض ، وفى جهة أخرى خزانات خشبية تصلح لتخزين البضائع ، كان ناظر المحطة يتمشى على الرصيف ، يأمر مختالا مثل الديك ، قبعته الحمراء ، عرفها ثائر دون القبعات والقلنسوات ، والمناديل السوداء .

كانت القرية تبعد عن المحطة حوالى أربعمائة متر أو خمسمائة ، تمثل بقعا قذرة فى الأرض ، تتبسط دون نظام ، حتى سفح التلة الخفيف ، ومنارة الكنيسة - وهى ارتفاع خرب وقوام متداع - تداعب السماء بطرفها المجدوع ، الطريق متكلس ، خال ، باطل حتى التخوم الزئبقية ، يحشد وحشات الحقول .

أمال الجالسون فى الكابينة رؤوسهم ، عند الباب رجل يجاهد لاهثا ، شدد الرجل من عزمه ، ساعده رجلان من الكابينة لتمر سلته ، وحقيبته الكرتونية المحزومة بحبل ، استند الرجل على الإطار ، تأمل المسافرين ، كان الرجل ذا نظرات وانية ، متأملة ، متقصية ، عيناه رطبتان ، سوداوان كأنهما مبردان ، تصلان حتى سلته وحقيبته ، مسمرتان حتى شبكة الحقائب ، وتنزلان حتى بقية الأشياء والانتظار قبل أن يتكلم ، خلع قبعته ، ونفض بيده الأخرى قميصه .

قال بين وقفة قصيرة : حياكم الله ، لست فى سن تسمح لى بالسفر .

طلب أن يؤذن له بالاقتراب من النافذة ، لم الجميع سيقانهم ، نفخت السيدة العجوز معترضة ، وحين استقرت امتدت منها نفثة .

– لتأذن السيدة .

تحت النافذة ، وعلى الرصيف ، امرأة عجوز قابعة، في انتباه مشوش ، وجهها يكاد يكون أخاديد مرتبكة من التجاعيد تشوهه ملامحها ، عيناها إبرتان ، ويداها تخفقان معروقتان .

– يصرخ الرجل : ماريا ، كل شئ الآن فى مكانه .

– اجلس يا خوان ، اجلسى ، رفعت المرأة يدها حتى جبهتها لكى تصلح منديلها ، ولكى تجفف العرق الخانق ، ولكى تجمِّع فكرة .

اجلس يا رجل .

– لن يسير الآن .

– لا يناسبك أن تظلى واقفة .

– مازلت أستطيع ، إنك أنت الذى يجب عليه أن . . .

– متى يسير .

– حينما أصل ، سأذهب إلى «دون كانديدو» فإذا وجدت مكانا فهو أفضل .

– ليعمل كل ما فى وسعه ، قل له كل شئ ، وإياك ألا تقول له .

– حسنا يا امرأة .

– اجلس ياخوان .

– مازال عليهم أن ينزلوا البضائع ، حينما ترين ابن مانويل ، قولى له

ليقول لأبيه إننى فى المدينة ، ولا تقولى لماذا .

- سوف يعلم .

- اهتمى بنفسك يا ماريا ، وكلى

- لا تقلق ، والآن اجلس ، اكتب إلى ما يقولونه لك ، سوف يقرأون لى الرسالة .

- سأكتب ، سأكتب ، سترين أن كل شئ سيكون حسنا ، تبادلا نظرات صامتة ، غطت المرأة وجهها بيديها ، صفر القطار ، دق جرس المحطة ، صوت الفرامل عند تراخى القطار بدا كما لو كان يتمدد القطار ، ويتمطى قبل أن يشرع فى السير .

- صرخ الرجل : لاتبكى يا ماريا ، كل شئ سيكون حسنا .

- قالت المرأة وهى تنشج بالدموع : اجلس يا خوان ، فى صوتها المتهدج حنان وحب وخوف ووحشة .

شرع القطار فى السير ، وبدا المرأة تلوحان وداعا ، واصطلحت تجاعيد وجهها وسجاحته على طمس ملامحها .

- وداعا ماريا .

يدا المرأة تجيب وداعا ، وكل شئ غدا صمتا مطبقا ، عاد الرجل إلى الكابينة ، تجاوز القطار حجرات المخازن الخشبية ، وبدأ يدخل فى الحقول .

- قال الرجل صاحب القربة وهو ينهض : إجلس هنا يا جدى .

بسطت السيدة العجوز ساقيها ، وأسدلت الفتاة الستارة المشمعة ،

والرجل الذى كان يتحدث عن الحرب أخرج علبة سجائر غامقة وكبيرة ، ممتلئة ومنتفخة ، ورقيقة مثل الضرع .

- تفضل يا جدى .

جلبت السيدة العجوز من جديد تهوية بالمجلة السينمائية ، وسألت بريب :

- هل المحاصيل جيدة هذا العام ؟

الرجل الذى ما كان يتحدث مع النساء ، بل كان فقط يشارك فى شرب النبيذ ، حين تطرق الكلام إلى الحقول نظر مليا إلى الرجل العجوز ، كانت نظرته عاطفة وصديقة ، وثقت الفتاة تمهيدات المودة المتبادلة .

- هل أنت ذاهب لإجراء عملية ؟

حينئذ قبل الرجل العجوز أن يشربَ من القربة ، وأن يدخن ، وشرع يحكى وكلماته تتاصى الحقول .

- المرض . . . العمل . . . الأرض . . . قلة الدراهم . . . المرض . . . العمل . . . الأرض . . . المرض . . . العمل . . . المرض . . . هذه هى المرة الأولى ، هذه هى المرة الأولى التى نفترق فيها أنا وماريا . . .

سنواته تتوالى رتيبة كأنها أنفاس الأرغول .

حتى تحين الثانية عشرة

حتى نحين الثانية عشرة

«فى الثانية عشرة إلا الربع ظهر أمس انهار منزل تحت الإنشاء»

من أخبار الصحف

كان التنفس صعبا ، صفارات المصانع تثقب الجانب الأبيض للصباح ، تمضى عربات القمامة نحو المزابل ، نفخ بدرو سانشث فى أصابعه .

استيقظت أنطونيا بويرتو ، بكى الصغير ، فتحت أنطونيا النافذة قليلا ، تسلل البرد دائرا فى الغرفة مثل طائر ، يسعل الصغير ، أغلقت أنطونيا النافذة ، تقلص البرد حتى تلاشى ، استيقظ خوان أيضا ، بعينى أرنب مذعور ، تقلب فى الفراش ، وأيقظ أخاه الأكبر .

أغلقت أنطونيا النافذة ، رائحة الغرفة كريهة ، مرت بأناملها الغليظة على الزجاج المغطى بالثلج ، رائحة فمها كريهة من جراء ضرس مقلق ، نظرت إلى الشارع المغمور ثلجا ، وإلى تلال الحصباء السميكة الموشوجة بالجليد ، سمعت ولدها الصغير يبكى ، كان بدرو قد مضى إلى عمله ، مر على زواجهما عشر سنوات ، تنجب ولدا كل عامين ، نزل الأول ميتا ، لم تعد تتذكر ، فليس لديها وقت ، بعد ذلك ولد لويس ، وخوان ، ثم الابن الصغير ، وفى الصيف القادم تنتظر ولدا آخر ، يعمل بدرو فى

البناء ، كان لديه عمل أفضل ، لكن الأمر مفهوم ، الأمور . . . لا يدر عمله كثيرا ، ومن الواجب مساعدته ، ولهذا كانت هى ، ففضلا عن المشاحنات ، وتنظيم البيت ، فإن أنطونيا تفصل قمصانا للجيش .

يبكى الصغير ، يوقظ إخوته ، وثب الولد الأكبر لويس من فراشه لابسا قميصا ، وفى عجلة لبس بنطلونه ، بقى خوان يلعب بالخرق يبنى منها جبالا ويزلزلها .

جَعْلُ البطانيات جبالا ورصفها يجعله يحلم ، يخترع مناظر ، تخيل انهارا يمكن أن يصيد منها كابوريا – وهى حجارة بالطبع – كابوريا وأرزا لأن هذا أفضل طعام فى رحلات الأحد الصيفية .

اغتسل لويس ، كف الصغير عن البكاء ، دخلت جارة تطلب قليلا من اللبن – لأن اللبن انقطع عن منزلها دون علة – أعطتها أنطونيا ماطلبت ، الجارة ذراعها مستريحة على صدرها ، والأخرى مرفوعة تسند به وعاء ، بدأت تتكلم ، وصلت الأصوات مبهمة إلى سمع خوان ، تقول الجارة :

– الأولاد حين الولادة تكون عظامهم هكذا . . . (من جهة واحدة) ، بعد ذلك لابد أن تنمو من الجانبين ؛ لكى يكتمل نموهم ، ينمون فقط من جهة واحدة . . .

– خوان !!!

أفزعه صوت أمه ، لايزال يحاول الحلم .

– أنا قادم .

- انهض ، وإلا أصابك الجليد .

لم يكن لدى خوان أى خيار ، نهض ، كانت غرفته بجوار المطبخ ، فى البيت تسبهما أنطونيا بصوت فظ وحنون ، لويس أقر بخطئه ، أما خوان فقد تهدلت شفتاه .

- وأنت ياخوان ، لاتتباله ، ولا تكن مستهترا .

بعد ذلك بدأت أنطونيا حوارا ذاتيا ، دائما هو هو - يريحها توقف الولدان ، يراقبان أمهما ، حتى تزيحهما إلى الشارع .

- تستطيعان الذهاب ، هنا لاتفعلان شيئا .

يمضى خوان بطيئا نحو الباب ، يواربه . . . كان على وشك الوثوب منطلقا ، حينما نادت أمه :

- لاتجر كثيرا ، لئلا تعرق وتصاب بالبرد ، أنت تعرف !! تذهب إلى المستشفى ؛ فنحن هنا لانريد مرضى .

الانذاران اللذان تهدد بهما أولادها - دون فائدة - هما : المستشفى أو الملجأ ، عندما لا يؤثر فيهما للوهلة الأولى تتوعدهما بالأب .

- سأقول لأبيك ، وهو يؤدبك . . . حينما يعود أبوك يصفى معك الحساب ، حينما تعاود الكرّة سترى ما ينتظرك فى الثانية عشرة .

أحس خوان بارتجافة فى ظهره حين هدد بأبيه ، الذى يرجع مكدودا ، وإذا ضربه فضربه ضجر هادئ ، إنه متأكد أن أباه يضربه دون اهتمام ، بعكس أمه التى تضرب فى وعى وجلبة .

شعاع من الشمس يذهب الواجهات ، يتلاشى الآن الضباب

المرتفع ، تنتفخ العصافير مثل شدقى طفل يحبس الهواء ، يتمدد كلب فى الشمس مخرجا لسانه ، حصان عربة اللبّان يضرب الأرض بحوافره ويحرك أذنيه ، يتثاءب الصباح سعيدا .

دخل خوان إلى أرض فضاء ، يتصعلك ، يصفر ، يقذف حجارة ، هو فى الغرفة علـــى مـا يرام ، لكن حين ذهب إلى المطبخ لم يستطع العودة ، لقد بدأ يرتجف .

أخذ خوان وعاء يبول فيه ، تناهى إلى سمعه صوت أمه منذرا :

– يا خنزير ، إذهب إلى دورة المياه .

لم يكن يرغب فى الذهاب إلى دورة المياه ؛ لأن البرد شديد ، لكنه ذهب ، دورة المياة فى الدهليز ، حين عاد كانت الجارة قد مضت ، أمسكته الأم من خناقه ، وسحبته إلى الحوض :

– لنر ، متى تعرف تغسل وحدك !!

أفطر أخيرا .

خرج إلى الدهليز ببطن دافئة ، كان أصحابه يلعبون بمكانس الحدائق ، يشكلون نصف دائرة ، ويحاكون بالأصوات ، ظل لحظة ناظرا إياهم ، يداه فى جيبيه ، ظل ينظر إليهم باستهانة ، وقف برهة على رجل عرجاء ، لكى يجرف كعبا ، بالرغم من أنه لم يخرج يده اليسرى من البنطلون ، بعد قليل نزل أخوه لويس لقضاء شئ ، قرر أن يصحبه .

شئ مبهج الصعود إلى تلال الحصباء ، والتوقف لرؤية بركة ، وتحطيم الجليد بكعب الحذاء ، وأخذ علبة كبريت فارغة ، أو أخذ ورقة

مبلولة بسيطة حزينة .

تعمل أنطونيا بجانب النافذة ، جالسة على مقعد عريض صغير ، ضوء الدهليز مر ، ضوء أسير ، ضوء يحتم انحناء الرأس كثيرا للخياطة ، وعلى الموقد قدر تضطرب ، تترك أنطونيا القميص فوق ركبتيها ، تضخم شدقها بلسانها متفحصة ضرسها ، حتى العاشرة لم يعد الطفلان ، تلَهِّيا ، أو ربما يفضلان البرد فى الشارع على الحبس ، زجاج البيت المواجه فى لون الدم مثل الماء الذى يغسل فيه المرء أنفه الدامى ، بعد نبشه كثيرا ، جدران المنزل المجاور للأرض الفضاء رمادية كما لو أنها أثر الاصبع المطلى بالريق فى الجدار الأبيض ، يعلم خوان كيف يبحث عن وجوه المهرجين فى بقع الجدران ، يتذكر نزلة برد كانت تسليته الوحيدة فيها أوجه الجدران .

تطل أنطونيا صارخة :

– اصعد ياخوان .

– حاضر يا ماما .

لكن خوان ، خوان الحالم ، يتأخر باحثا دون أن يدرى عن أى شئ يبحث فى الأرض الفضاء ، أخيرا يصل إلى الباب ويصعد ، قالت الأم فى بساطة :

– خذ هذا ، واذهب به إلى صاحب الدكان ، وسأذهب أنا فيما بعد ، وحين تذهب يمكنك متابعة اللعب ، ولن أقول لك شيئا .

أبدت الأم حركة ساخرة جميلة :

– حتى تحين الساعة الثانية عشرة ، مازال لديك وقت ، يمكنك أن تفعل ما تشاء .

لويس جالس وأخوه الأصغر فوق ذراعيه ، يبتسم لويس لأنه أحس أنهم سيجيزونه على همته ، فزع خوان ، مرت أيام كثيرة دون أن يقولوا له هذا ، نعم ، يستطيع خوان الآن أن يفعل ما يشاء ، لكن خلال وقت قصير ، ساعة ، ساعة وربع وأكثر إذا أبطأ الأب ليشرب كأسا مع أصدقائه ، لكن يبدو أن الأمر صعب ؛ فاليوم هو الجمعة ، وأيام الجمع ليس فيها نبيذ لأبيه ، ولا طعام كثير لهم ، حظه سيئ ، خوان لا يعرف كيف يقرأ الساعة ، حين وصل إلى الدكان بسلة أمه يسأل صاحبه :

– من فضلك ، كم الساعة الآن ؟

– الحادية عشرة وعشر دقائق يا بنى .

– أمى سوف تمر فيما بعد .

– حسنا يا بنى ، خذ بعض اللوز .

صاحب الدكان رجل طيب ، يمنح أولاد زبائنه بعض اللوز ، تمتم خوان شاكرا ، وخرج ، لا يعنيه اللوز اليوم كثيرا ، وضعه فى جيبه ، حاول أن يقضم واحدة ، بينما يفكر فى أن الساعة ستكون حالا الثانية عشرة .

يجلس خوان على عتبة داره مفكر فيما يمكن أن يفعله ، يمكن أن يفعل : يعود إلى الأرض الفضاء منقبا ، يصعد إلى بيته يطلب العفو ، يصل إلى الناصية ويرى كيف يحفر رجال خندقا ، يصعد إلى بيته ويقبع

منتظرا فى ركن ما ، يتسلى فى الدهليز ، ويصرخ لكى تعرف أمه أنه قريب ، وترى أنه طيب ، نعم ، هذا الحل الأخير هو الذى عليه أن يفعله .

فى الدهليز يلعب بصندوق خشبى أولئك الذين كانوا يلعبون بالمكانس ، بقى خوان ينظر إليهم فى إيماءة ضارعة من عينيه ، أحدهم وهو فى عرقه يلهث عاد إليه وسأله :

– تريد اللعب ؟

– حسنا .

وزع خوان اللوز فى سخاء ، ظلت أنطونيا بويرتو تخيط ، من آن لآخر تنهض لتراقب المطبخ ، تواصل القدر الارتجاف والفوران ، دائما تلتهب أصابعها حين تنزع غطاءه ، عليها أن تنزعه بواسطه الصدار ، يساعدها لويس ، والصغير يُتهته ، من تحت يتناهى إليها أصوات خوان ، تطل من النافذة فى حنو .

يعود خوان فى تلك اللحظة ليفاجئ أمه ، يكسب خوان فى الساعة الثانية عشرة إلا الربع .

تدخل جارة من الشارع ، تخترق الدهليز مسرعة ، حين رأت خوان سألته :

– أمك موجودة . ؟

أومأ الأبن برأسه ، نهض وراءها ، حين وصلا إلى شقته ، تطرق الجارة بأصابعها ، فى عصبية مسرعة برقية ، مثل طارئ غريب (س. أ – س) ، تنادى بالجرس ، والأصابع ، والضبة aldaba ، يخرج السكان من

البيت مسرعين ، قلوبهم فى أيديهم ، تخرج أنطونيا بويرتو :

– ماذا حدث يا كارمن ؟

– الآن أقول لك ، أمض يا خوان ، عليك أن تذهبى إلى الهاتف ، فقد اتصل بك رئيس العمل ، مخبرا أن بدرو زوجك حدث له حادث .

نزعت صدارها ، وثبت على الدرج هابطة :

– احرسى هؤلاء .

– لا عليك .

سمع خوان كل شئ ، أجهش بالبكاء ، بكى لويس مثله مفزوعا ، تضم الجارة الولد الصغير بذراعيها محاولة تهدئته ، أغلقت الجارة الباب .

تدخل أنطونيا المحل حيث الهاتف الوحيد فى الشارع ، لاتعرف كيف تتكلم :

– نعم . . . أنا . . . من وقت طويل ؟ . . . الآن .

تدخل الشمس من خلال الفاترينة ، تعكس اللون الأحمر للجبن المدور فوق رخام المائدة .

صفارات المصانع تصعد إلى السماء الصافية ، تشف عن منتصف النهار ، فالساعة الآن الثانية عشرة .

للمترجم

١ – خاتمان مـن أجل سيدة – مسرحية مترجمة – حازت جائزة الدولة في الترجمة .

٢ – خمس مسرحيات أندلسية – مترجم .

٣ – مقامات ورسائل أندلسية – مترجم – الطبعة الثالثة .

٤ – فصول من الأندلس في الأدب والنقد والتاريخ – مترجم .

٥ – تأثيرات عربـية فـي حكايات إسبـانيـة – دراسـات فـي الأدب المقارن – مترجم .

٦ – قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية – مختارات ودراسة – مترجم .

٧ – قلبان وظل – مترجم .

٨ – الخوف من المطر – شعر .

٩ – لزوميات وقصائد أخرى – شعر .

١٠ – هدير الصمت – شعر .

١١ – مقام المنسرح – شعر .

١٢ – أغاني العاشق الأندلسي – شعر .

١٣ – المازني شاعرا – دراسة .

١٤ – أدب ونقد – دراسة .

١٥ – شعراء ما بعد الديوان – جـ١ – دراسة .

١٦ – شعراء ما بعد الديوان – جـ٢ – دراسة .

١٧ – في الشعر العماني المعاصر – دراسة .

١٨ – حدائق الأزاهر – لابن عاصم الغرناطي – تحقيق ودراسة .

الفهرس

	الصفحة
- الإهــداء	٧
- تقديم بقلم المترجم	٩
- قلبان وظل	٢٧
- فى الشاطئ الآخر	٣٧
- باروكة دون رامون	٤٩
- أود أن أنام فى سلام	٦٥
- بعد المحطة الأخيرة	٧٧
- فى الصباح الباكر	٨٧
- طائر العقعق يعبر الطريق	٩٥
- رواية نهر المانثانارس	١٠٥
- ولو لم ير الشمس	١١٧
- فتاة الميدان	١٢٩
- حكاية بابا نويل	١٣٧
- الراهبة كانديلاس	١٤٧
- حجارة الصحراء	١٥٩
- الوداع	١٧٣
- حتى تحين الثانية عشرة	١٨٣

■ دار سـعاد الصباح
للنشر والتوزيع
هي مؤسسة ثقافية عربية مسـجلة بـدولة الكـويت وجمهـورية مـصر العـربيـة وتهـدف إلي نشـر مـا هـو جـدير بالنشـر مـن روائـع التراث العـربي والثقـافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشبـاب العـربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخـرى حتى تكـون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرةوبين كبار المبدعين وشبابهم وهى نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقـلة مـن كبـار المفكرين العرب في مجالات الابداع المختلفة.



مطبعة اطلس
imprimerie atlas
LE CAIRE: 11-13 RUE SOUK EL TEWFIKIEH, R.C. 100731, TEL: 747797

دار سعـــاد الصبـــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفـاة ١٣١٣٣ ـ الكويـت
ص. ب: ١٣ المقطم ـ القاهرة

